النّسَاجة وراعي البقر

(أسطورة صينية الأصل)

سلامة عبيد

النّسَاجة وراعي البقر

(أسطورة صينية الأصل)

- 1 -

في الليلة السابعة من الشهر السابع القمري، تنصب "طيور العقعق" جسراً فوق المجرّة يعبر عليه "الراعي" للقاء زوجته الشابة "النّسَاجة".

هذا اللقاء يسميه البدو في بلادنا "القِران" ولا أدرى أي أسطورة يمثل هذا القران، ولكني سمعت في الصين حكايات كثيرة عن ذلك اللقاء، تختلف بتفاصيلها، وتتفق غالباً، بروحها...

في بلاط "الإمبراطور السماوي"، كانت تعيش نجمة تنسج للأُسرة الملكية الحلل الفاخرة المطرّزة بخيوط الشمس الذهبية، وأشعة القمر الفضية، والمرصعة ببريق النجوم...

كان عملها رغم جماله رتيباً، أحسّت معه بكثير من الملل والكآبة.

شعرت بأن "المملكة السماوية" ضيّقة رغم اتساعها، الحياة فيها رتيبة: شمس تشع ونجوم تختفي، نجوم تشع وشمس

تختفي، أفلاك تدور في مضمارها المحدد منذ الأزل، يسقط بعضها من التعب والدُّوار حيناً، فيهوي في الفضاء اللامتناهي ساحباً وراءه ذيلاً من الشرر المتطاير، ويقترب بعضها الآخر من الشمس يستدفئ بها فتحرقه أو تكاد، ويُشيح عنها فيحرقه الزمهرير أو يكاد!..

فضاء وراء فضاء، لا فرح فيه، وقد يحزن فيه القمر حيناً فيتشح بالسواد وتحزن الشمس حيناً فتلف هامتها بعصابة قاتمة.

❖ ❖ ❖

- 2 -

كانت النّسَاجة تراقب من مشغلها السماوي كوكبا يسميه اهل السماء "الأرض" يدور حول الشمس مثل غيره بكثير من الرتابة ولكنه كان يبدو غريبا مثيرا تمنَّت لو تعرف الكثير عنه.

وذات يوم، كانت تحمل الى "الامبراطورة السماوية" شيئا مما نسجته، وبجرأة مهذَّبة سألت النّسَاجة الامبراطورة أن تخبرها شيئاً عن عالم الأرض.

فوجئت الامبراطورة، ولكنها تمالكت نفسها بكبرياء :

- الأرض قطعة من مملكتنا الشاسعة، كرة صغيرة تدور حول آلهة النهار مرة كل سنة وتتناوب عليها الظلمة والنور كل يوم.
- يعني انها لا تشع من ذاتها مثل نجوم السماء!؟
- الأرض تراب، معدن بخس قاتم!
- سمعت أنها منفى لبعض العصاة!
- آه! هذه حكاية قديمة!

- وهل تسمح سيدتي الامبراطورة بأن تروي لخادمتها شيئا من هذه الحكاية؟ توقفت الامبراطورة برهة تفكر كيف تورطت في الحديث مع خادمتها وهل تسمح لنفسها بأن تكون شهرزاد ألف ليلة وليلة!؟ لا بأس!

النّسَاجة فتاة ذكية مُجدَّة مخلصة، والامبراطورة تحب أن تتحدث من القلب الى القلب بعد أن ملّت العبارات التقليدية والمراسم اليومية المملة....

- القصة طويلة وقديمة، بعضهم يرويها بشكل وآخرون يروونها بشكل، ولكنها بإيجاز، قصة مخلوق اسمه "آدم" ومخلوقة اسمها "حواء" خالفا تعليمات السماء فنفيا إلى كوكب الأرض حيث يأكل الإنسان خبزه بعرق جبينه، وبالآلام تلد المرأة!.

كانت النّسَاجة ذكية، ولكن ذكاءها خانها هذه المرة، فقد وجدت نفسها أمام طلاسم لم تفهم منها شيئاً: الخبز، عرق الجبين، الولادة... ومع ذلك فقد تجرأت على الاستفسار!.

- يعنى أن الإنسان لا يعيش مثلنا على أوراق الصنوبر الخضراء وشعاع الشمس الوضاء!؟

- أوراق الصنوبر هي طعام الخالدين ونور الشمس شرابهم، أما الإنسان فطعامه حبوب وخضر وشرابه ماء!

بدأت النّسَاجة تفقد ثقتها بنفسها، هذه طلاسم جديدة تضاف إلى طلاسم سابقة: حبوب، خضر، ماء!؟.. ولكنها تشجعت فسألت:

- يعنى أن الإنسان غير خالد؟
- ليس تماماً، الإنسان يعيش عدداً من السنين، قليل من الناس من تتجاوز حياته سبعين دورة من دورات كرته الأرضية حول آلهة النهار ثم تفارقه الروح ويتحول جسده إلى جيفة نتنة يسرع أهله وجيرانه بدفنها في التراب غالباً، يبكون ويحزنون قليلاً أو كثيراً ثم يعودون إلى أعمالهم اليومية، يستقبلون مولوداً جديداً كل يوم ويودّعون بحزن أو بقناع من حزن ميتاً جديداً كل يوم!..
- إذا سمحت سيدتي أن تشرح لي شيئاً عن معنى "الروح"، هذه كلمة صعبة وجديدة بالنسبة إلي!

- الروح شيء، بل تعبير لم يستطع أحد أن يحدده بالضبط، ولكن الناس اصطلحوا على أن يسموا مادة الإنسان: العظام واللحم والعروق.. "جسداً" وتنفسه وحرارته وحركة قلبه وأعصابه معاً "روحاً" فإذا توقف تنفّسه وحركة قلبه وأعصابه وأصبح جسده جامداً بارداً قالوا: إن "روحه" قد فارقت الجسد، وقال بعضهم: إن الروح قد فارقت وعاءها النتن أو قميصها الوسخ.
- فهمت يا سيدتي أن جسد الإنسان يدفن ومن ثم يتحول إلى رماد ولكن أين تذهب الروح؟!

هنا احمرت وجنتا الإمبراطورة وأحست بالحرج ولكنها لم تتراجع فقالت بهدوء وهى تحاول أن تبتسم:

- للناس يا صغيرتي أقوال كثيرة في الروح ولكن يصعب علينا نحن أبناء السماء أن نفهم طريقة تفكيرهم... في المكتبة الملكية مجموعة من كتبهم الدينية والفلسفية، أقرأُ لك بعضها بين الحين والحين...

هنا جمعت النّسَاجة كل شجاعتها وقالت بشيء من الخوف والشك:

- القراءة شيء ثمين يا سيدتي، ولكن ما رأي صاحبة الجلالة لو سمحت لي بأن أقوم بجولة في ذلك العالم الأرضي ثم أعود أقص على مولاتي ما رأيت وما سمعت؟!

دهشت الإمبراطورة لهذا الاقتراح المفاجئ، وكادت تغضب ولكنها استطاعت أن تضبط أعصابها، وأن تظل محتفظة بكبريائها الملكي:

- العالم الأرضيّ، يا صغيرتي، عالم مليء بالشر، الدماء لا تجف من بقعة فيه حتى تغمر بقعة أو بقاعاً جديدة منه، الغني فيه يأكل الفقير والقوي يستعبد الضعيف، يتقاتل فيه الناس على المال، على قطعة أرض، على حفنة ماء، على كل شيء وعلى لا شيء! أغرق الطوفان مرة جيلاً كاملاً منهم لفسادهم ولكنهم عادوا أكثر فساداً وأشد حقداً!

- لعلهم تحسنوا اليوم!... ربما أحمل إلى سيدتي أخباراً أكثر جدة عنهم.
- لا تفكري بالعالم السفلي يا صغيرتي!... أنت جميلة، والجمال في العالم السفلي يولد الغرور ويثير الفتن!
- لم تزدني سيدتي إلا تشوقاً إلى ذلك العالم الغريب!
- لا أرفض اقتراحك الآن ولا أقبله، أستشير جلالة الإمبراطور السماوي... عودي غداً...

.....

في اليوم الثاني كانت النّسَاجة تقف بين يدي الامبراطور السماوي وقد شبكت يديها فوق صدرها وأحنت رأسها باحترام وإجلال، بدأ الامبراطور السماوي يتكلم ببطء وبشيء من الارتباك والغيظ:

- من أوحى لك بهذه الفكرة السخيفة؟
- يستطيع مولاي أن يصف هذه الفكرة بما يشاء ولكنها فكرتي، قلت في نفسي: أتعرّف إلى عالم جديد وأحمل إلى مولاي أحدث أخباره.

- وهل تظنين أنني لا أعرف ما يجري في ذلك العالم السفلي حتى أحتاج إلى خادمة مثلك تحمل إليّ أحدث الأخبار عنه!؟
- أرجو من مولاي أن لا يغضب علي، لم أقصد ذلك وإنما كان ذلك فضولاً مني أرجو أن يُغتفر.
- اسمعي: السماء هي سيدة الأرض، تأمرها وتسيّرها، تشقيها وتسعدها، تعريّها وتكسوها، تظمئها وتسقيها ونحن من قصرنا السماوي نحكم الأرض كما نحكم السماء كل ما يجري فيهما يجري بأمر منا وبمعرفتنا... يبدو أنك ماهرة في النسيج ولكنك غبية في شؤون المملكة.
- للسيد أن ينعت خادمته بما يشاء ولكن يحسن به أن يسمح لها من وقت لآخر بأن ترفه عن نَفسِها لتظل قادرة على خدمته.
- أنت تقولين هذا؟! من الذي يتمتع بمثل ما تتمتعين به أنت؟

أنامِلُـكِ لا تتحـرك إلا بـالحرير وخيـوط الـذهب والفضـة وبَصَرك لا يقع إلا على وميض الجواهر وبريق النجوم.

- ولكن ألا يحق لي يا مولاي أن أحاول رؤية أشياء جديدة.
- أشياء جديدة بخسة وتافهة!
- لمولاي أن يصفها بما يشاء.
- يعني أنك مصممة على التجربة.
- إن سمح مولاي.
- وإن لم يسمح
- قد أجد الوسيلة.
- صغيرة ومغرورة... اخرجي!...

كان الظلام يغلّف السفح الذي هبطت فوقه النّسَاجة، فلم تستطع أن تتبين موقع أقدامها ولا تفاصيل المكان الذي هبطت فيه، بعد أن انتزعت منها الآلهة بعض خصائصها السماوية.

وقفت فترة، كأنها تمثال مرمري تلفه غلالة سوداء شفافة سحرية فلم تستطع أن تحرك قَدَماً فقد هبطت حافية لأن السماء لا تقر صناعة النعال ولعلها رجس من أعمال الأرض.

نظرت حولها إلى أمام وإلى خلف فلم تتبين شيئاً سوى أشباح جامدة، لبعضها رؤوس مشعّثة، وأذرع طويلة معوجة متشابكة، فأحست، ولأول مرة، بارتعاش وقلق.

ومَرَّ بقربها، مسرعاً، شبحٌ يكاد يلتصق بالأرض، يجرّ وراءه ذيلاً طويلاً كثيفاً، ثم توقف على مسافة منها ينظر إليها بعينين كأنهما جمرتان متوقدتان في كومة من رماد، فخفق قلبها بشدة ولأول مرة أحست بجفاف في حنجرتها وبالعرق البارد يتصبب من جبينها...

ومن بعيد كانت أصوات و وشوشات متباينة تصل إليها، ويتخللها نعيب بومة ندابة أو عواء كئيب طويل متقطع.

الريح الباردة تلسعها فتتكوم في ثيابها الفضفاضة، تلف بها قدميها وتطرح بعضها فوق رأسها ثم ترفع بصرها نحو السماء:

- آه... هناك القمر ينساب قارباً من فضة فوق قطيفة زرقاء شفافة والنجوم مشعشعة كأنها القناديل في حفلة عيد الربيع، والفضاء ناعم ناعم كالحرير، ساكن مثل بحيرة متجمدة، أما هنا فظلام يلف ظلاماً، وعالم يتنفس قلقاً وارتعاشاً!..

أحست النّسَاجة، ولأول مرة، بالندم، أحنت رأسها الصغير بكآبة فوق صدرها، ثم أرسلت دمعة فوق شفتين جافتين فلم تزدهما إلا مرارة!

كانت تسمع من بعيد صوت بلبل يغني، أو ساقية تترنم، فلا يخفف ذلك إلا القليل من شعورها بالخوف، وكانت تشاهد، من بعيد، ناراً صغيرة تتوقد في السفح المقابل ولكنها لم تستطع أن تبعث في نفسها إلا بارقة من رجاء...

أسندت ظهرها إلى جذع شجرة ثم شبكت يديها فوق صدرها، واستسلمت إلى النوم، نوم يؤرقه الخوف فترة وتدغدغه الأحلام الجميلة فترة أخرى...

رأت في ما يرى النائم أن الظلام في الأفق الشرقي يتراجع رويداً رويداً، فيصطبغ الأفق بلون رمادي قاتم ثم برمادي شفاف ثم بلون بلوري تنساب في أرجائه قطعان من السحب المتناثرة تطرّز حواشيها خيوطٌ وردية وذهبية، ثم ينمو ذلك الضياء الباهت رويداً رويدا يمسح في زحفه الهائل قناديل السماء كما يمسح طفل لوحَهُ الحجري.

وخيل إليها أنها تسمع أناشيد جميلة، وزقزقات لم تألف سماعها ثم هديراً متلاحقاً لا هو شرس مخيف ولا هو ناعم مطرب، وخيل إليها أن النسيم الذي يداعب شعرها كان يتنفس عطراً...

فتحت عينيها ببطء وتكاسل ثم أغمضتها بسرعة وبرفق لكي لا تهرب من أجفانها تلك الأحلام الحلوة المعطّرة، إلا أنها عادت تفتح عينيها من جديد وتتطلع حولها بشيء من الحذر والريبة... تفرك أجفانها بقلق ثم تتلمس الأعشاب والتراب بيديها

الطريّتين فتحس بأنها لم تعد تحلم وإنما هي تستيقظ، ترى بعينيها وتسمع بأذنيها وتتلمس بأناملها..

في الأفق الشرقي كانت الشمس تلوّن السحب بالورد والذهب وتضفي على قمم الجبال الفضية بريقاً مشعشعاً شاعرياً ثم تبرز بجلال خلف الجبال الشامخة ومن خلال السحب المتوردة دائرة حمراء ذهبية تغمر الكون بالنور والدفء والنشاط...

من بعيد كان البحر يتلألأ تحت أشعة الشمس كأنه قطعة من السماء الزرقاء، حيٌّ، في حركة دائمة وهمهمة دائمة يغسل أقدام الصخور برفق ويرش هاماتها برذاذه البلوري...

ما أعظمك أيها البحر!..

ومن بعيد بدا شراع أبيض وحيد تدفعه يد النسيم السحرية نحو المجهول، فأحسّت النّسَاجة بأنها مثله، شراع آخر تدفعه يد سحرية نحو المجهول...

في الأفق الآخر كانت الجبال قد استيقظت وارتدت ثياب الأرجوان ومعاطف فضفاضة من ألف لون ولون، بدت قممها شامخة تطاول السماء وأوديتها سحيقة ملتفعة بالظلال النديّ، والضباب الشفاف وفي السفوح تعلّقت بعض القرى كأنها أعشاش النسور جاثمة تحت أقدام المعابد الرشيقة المنتصبة مثل أسنة رماح مشرعة نحو السماء...

كانت أقرب القرى إليها قرية صغيرة مكونة من عشرات البيوت المنخفضة الصغيرة بباب واحد وبنافذة صغيرة واحدة أو بلا نوافذ أحياناً، إلا بيتاً يبدو كبيراً واسعاً متعدّد النوافذ والأبواب تربّع فوق أعالي السفح، ولعله بيت امبراطور القرية!..

حزنت النّسَاجة قليلاً، فقد ضاقت ذرعاً بأباطرة السماء وها هي تجدهم أمامها على الأرض، حتى في القرية الصغيرة الضائعة بين مجاهل الجبال.

لم يطل حزنها فقد كانت الطيور المغردة تملأ الغابة القريبة بأناشيدها ورفيف أجنحتها، وتملأ الفضاء حياة وبهجة وزقزقة...

رأتها تطير أزواجاً، وتتراقص فوق الأغصان أزواجاً بين الفراشات اللعوبة والزهور المتمايلة نشوى بندى الصباح، تغمر السفوح بألوانها الساحرة وعطرها الفواح!..

وعاود النّسَاجة الحزن عندما لاحظت أنها تقف وحيدة، وحيدة وسط كل هذه البهجة الطروبة، غريبة، ذاهلة...

وعندما حاولت أن تتحرك من مكانها، أحست بأن قدميها الحافيتين تلتهبان ولا تقويان على حملها، فتوقفت وهي تئن من الألم والغيظ!..

قدّت من ردائها الفضفاض قطعة لفّت بها قدميها ثم تابعت تقدمها ببطء وحذر وبشيء من الرضى.

كانت هناك وردة بلون شفتيها. كانت مغرية، مدت يدها تحاول قطفها، إلا أنها قفزت فجأة وهي تنفض أصبعها الدامية وتخنق صرخة من ألم...

- آه... لم تكن امبراطورة السماء مخطئة عندما حذّرت من العالم الأرضي، عالم خداع يبرز وردهُ الساحر ويخبئ أشواكه الشريرة الغادرة!...

أحست النّسَاجة بالجوع والعطش.

جربت الثمار والبقول فوجدت بعضها مقبولاً، وبعضها لذيذاً وبعضها مراً، فانتابتها شتى المشاعر، إلا أن روح المغامرة واكتشاف المجهول ظل يدفعها دائماً وبحماسة نحو المزيد من التجارب!..

قصدت الماء فوجدت بعضه آسناً كدراً، ووجدت بعضه سلسبيلاً، غبت منه بنهم حتى ارتوت، فأحست بأنه يسري في عروقها سريان الخمرة الصافية.

وأحست بالحرّ فارتمت فوق العشب النضر في ظل صفصافة وارفة فشعرت بالسعادة تغمر كيانها وتزيد حلاوة الكون حلاوة في عينيها:

- عفواً يا سيدتي الامبراطورة السماوية: في الأرض ماء وظلال وألوان وغناء... ومن التراب، هذا المعدن البخس تنبثق العطور والزهور والألوان وتولد الحياة بهيجة متجددة... فماذا في فضائك اللامتناهي؟!..

كـان النعـاس يـراود أجفانهـا فـي ظـل الصفصـافة، عنـدما أيقظتها نغمات مزمار تتردد أصداؤه في جنبات الأودية بمزيج من الحزن والحلاوة والحنان...

فوق التلـة المقابلـة، وفـي ظـل صـنوبرة عجوز، كـان راعـي البقر ينفخ في شبابته ألحاناً شجية وقد تمدد كلبه فوق العشب كأنه يراقب بانتباه ويستمع بشغف.

كان القطيع بضع بقرات وجاموسة واحدة، انتشرت في مَرجٍ صغير لا ترفع رأسها إلا لتطرد ذبابة أو لترسل خواراً كأنه نداء أمهات بكماء...

ودّت لو تقترب من ذلك الراعي وقد لمست في ألحانه نداء حنوناً جذاباً، ولكنها تردّدت ثم أحجمت...

كانت تعليمات امبراطورة السماء صارمة:

"حذار من الإنسان، إنه شيطان الأرض!"

كانـت الشـمس تميـل إلـى المغيـب، ذابلـة منهوكـة مـن سفرة طويلة...

الأودية عادت تلتفع بالظلام، وقمم الجبال الفضية تشرق متلألئة، وقطعان السحب استحالت إلى باقات من ورد وغلائل من أرجوان!..

أحست النّسَاجة بارتعاش خفيف يسري في عروقها هل هي نسمات الأصيل العابرة؟! هل هو الخوف من الظلام المقبل؟! لماذا لا تتبع الراعي إلى كوخه؟!

الكوخ يبدو صغيراً ولكنه يتسع بالتأكيد لإثنين، جدرانه من خشب وقش ولكنه بالتأكيد أكثر دفئاً وطمأنينة من جذع شجرة في العراء.

لن تغامر...

لا تزال توصيات الامبراطورة ترن في أذنيها:

"الإنسان أمكر من الذئب وأقسى!"

لهذا قررت أن تبيت ليلتها الثانية حيث هبطت...

في الصباح كانت قد اكتشفت كهفاً قريباً منها.

لعله أكثر أَمناً وأكثر دفئاً...

كان الكهف خالياً، فرشت أرضه ببعض العشب ونسجت له باباً ارتجالياً من أغصان الشجر وقصب البامبو وتسلحت بهراوة من سنديان ثم أغلقت على نفسها "باب" الكهف بشيء من الشجاعة وكثير من القلق!..

كانت أشعة الشمس الغاربة لا تزال تتسلل إلى جنبات الكهف فتمنحه شيئاً من الإنس إلا أنه سرعان ما تحول إلى قطعة من الظلام الموحش...

أحست كأنما أصابع الظلام تشد على عنقها ببطء وتصميم...

لماذا دفنت نفسها حية، يجب أن تخرج... أن تبيت في العراء تسامر أخواتها النجوم... ولكن العواء كان يقترب ولعله تهديد!... تلمست هراوتها وشدت عليها بقبضة مرتجفة، واستعدت...

طال استعدادها وابتعد العواء، فأسندت ظهرها إلى الجدار الرطب تأخذ لنفسها قسطاً من الراحة...

في ركن من المغارة كان شيء شبه جمرة تتقد، لعله بدء حريق... قفزت نحوه فاختفى...

عادت إلى ركنها فعادت الجمرة إلى الاتقاد وهي تتحرك ببطء شديد ثم ارتفعت في الفضاء كقطعة من الشرر واختفت، ثم ظهرت في ركن آخر من الكهف تشع وتختفي...

وبرشاقة وخفة أمسكت بها وهي تتمتم:

- تعالي، ابقي بجانبي.. اسميك "سراج الليل" تنيرين ظلمتي وتؤنسين وحشتي!..

ولعل الحباحب كانت تفتش أيضاً عن أنيس لها في ذلك السكون المظلم الموحش...

أحست النّسَاجة ببعض الطمأنينة فاستسلمت إلى النوم، ولكن طنيناً متواصلاً خافتاً بدأ يقلقها.

شيء يحوم فوق رأسها، يحط على أذنها أو خدها، يلسع ويختفي.

أخذت تحرك يدها ببطء ثم بعصبية تطرد ذلك الثقيل الملحاح، ولكنه كان يجد دائماً طريقه إلى عنقها أو زندها، يلسع ويختفي... كان لا بد إذن من طرده بعنف هذه المرة!..

ضربت، فأحست بشيء رخو ينسحق تحت راحتها، وبشيء لزج يلتصق فوق خدها...

انتصبت مذعورة. هل هي تحلم... لا... لا يزال دم البعوضة القتيلة يدمغ خدها ممزوجاً بذرات جسم ضئيل مسحوق!..

- أنتِ قاتلة!..

وسمعت من بعيد صياح ديك خيل إليها أنه يصرخ:

- اقبضوا على القاتلة!..
- لا... لست قاتلة! من قال أني قاتلة؟!.. أردت أن أطردها فانسحقت تحت كفي... لم أقصد قتلها!.. ولكن، هذه الهراوة لماذا حملتها؟!.. للدفاع عن النفس!.. ومتى كان المدافع عن نفسه الرافض أن يُمتَصَّ دمه قاتلاً؟!... أنت لم تقتلي الحباحب لأنها تضيء شيئاً من ظلمتك ولا تلسع!...

هنا أحست بشيء من الهدوء فرفعت أصبعها تمسح بقعة الدم من على خدها فوجدته قد تجمد، لهذا كان عليها أن تحكه

بطرف ردائها وهنا عاودها القلق، شعرت كأنها تخفي معالم جريمتها في ثنايا ثوبها، وكيف تخفيها؟! لم تعد آثارها بقعة متجمدة فوق الخد أو وصمة حمراء في ثنايا الثوب وإنما هي الآن تنغرس عميقاً في الوجدان تشوّكه وتدميه...

- بعوضة!.. ومتى كان قتل البعوضة جرماً... وهذا الدم هو دمي!...
- البعوضة مخلوق حي... وأنت قتلت حياة، والدم على خدك بعضه منك وبعضه من دمها هي... أنت مذنبة فلا تتكري ولا تبرّري أنت مذنبة أصلاً... دخلت الكهف محتلة والهراوة في يدك... أليس هذا صحيحاً؟!.

ازداد قلقها وارتجفت مثل ورقة خريفية..

- لا أستطيع أن أبقى في العراء!.. العواء يرعبني والنعيب يحطم أعصابي والأشباح تشد على عنقي والبرد يهددني... يجب أن أجد ملاذاً... الكهوف الخالية كثيرة... صاحب الكهف ذو فروة ومخالب وأنياب... أنا أولى بالكهف منه!..

- وهنا صاح الديك للمرة الثانية، فعاد إليها إحساسها بأنها قاتلة ومحتلة ومكابرة، فتألمت، تألمت من كل قلبها، وزادها الظلام والوحشة والبرد ارتعاشاً وكآبة...

.....

أخذت السماء تغبر ثم تستنير رويداً رويداً.

أحست النّسَاجة بأن قلبها هو الذي يغبرّ ثم يستنير بعد ليلة مسهدة قلقة...

أسرعت بالخروج من كهفها القاتم وراحت تنفض الغبار وفتات الأعشاب العالقة بثيابها التي بدت مجعدة ملطخة كأنها ثياب شحاذة متشردة، وعندما اقتربت من الجدول تغسل وجهها هالها أن ترى شعرها منفوشاً ووجهها شاحباً وعينيها شبه ذابلتين.

فركت خدها جيداً لتتأكد من زوال كل أثر لبقعة الدم المتجمدة فوقه ولكنها شعرت بأنها لا تزيد تلك اللطخة إلا انغراساً في أعماق وجدانها...

كانت تحاول تسوية شعرها بأناملها عندما لاح من بعيد خيَّال بقبعة عريضة يتبعه رجلان أحدهما يحمل مظلة عالية والثاني يحمل هراوة ضخمة، ثم اتجهوا نحو كوخ راعي البقر... وقفت خلف شجرة ضخمة تراقب بفضول...

ترّجل الخيال الذي كان يركب بغلاً قصير القوائم، ثم ضرب الباب بعضاه السوداء اللماعة ثم اقتحم الرجال الثلاثة الكوخ وسمعت فيه ضجة صاخبة ثم أنين خافت...

بعد قليل خرج الرجال الثلاثة وهم يدفعون أمامهم راعي البقر يركلونه بأقدامهم حيناً ويَلكزونه بالعصى حيناً وهو يترنح يحاول الدفاع عن نفسه ولا يستطيع، يسقط حيناً إلى الأرض ثم ينهض ثم يسقط، وأخيراً سقط بلا حراك محدثاً صوتاً خافتاً كأنه جذع شجرة يابسة يهوي...

كادت تصرخ ولكنها كتمت صرختها بيديها الاثنتين.

كادت تقفز للدفاع عن الفتى ولكن الفتى كان طريحاً ممدداً على الأرض قبل أن تستطيع التحرك من مكانها.

بعد قليل تقدم صاحب القبعة العريضة والعصا السوداء اللماعة فرفس الفتى الممدد على الأرض ثم استدار وأمر تابعيه بإشارة من عصاه أن يلحقا به، ثم اختفوا في طريق يتجه نحو القرية...

أسرعت النّسَاجة صوب الراعي دون أي اكتراث بوعورة الأرض وحدة أشواكها، ودون أي اهتمام بتسوية شعرها أو تجفيف يديها.

كان لا يزال ممدداً عندما وصلت إليه، منبطحاً على وجهه يتنفس بصعوبة وقد اصطبغت ضفيرته القصيرة الفاحمة ببقعة من الدم المتجمد...

دماء في الكهف، ودماء في الكوخ؟

دماء في الليل، ودماء في النهار!..

أحست بشيء من الغثيان، بخيبة أمل لا تُحَدُّ، ومع ذلك فقد ركعت بجانب الفتى تمسح جراحه بطرف ثوبها وتبلل جبينه بكفها الندية...

لماذا تحس بأنه مظلوم!؟

ربما كان مذنباً يستحق العقاب؟!..

صاحب الشبابة الشجية يجب أن يكون إنساناً جيداً أو على الأقل يجب أن يكون إنساناً غير سيء!..

وهذه الطريقة الهمجية في العقاب كريهة دميمة...

رفع الفتى رأسه ببطء وبأنة طويلة خافتة، أدار وجهه بكثير من الجهد والمرارة ثم فتح عينيه المتورمتين لحظة ثم انكفأ من جديد على وجهه...

حاولت أن تحمله إلى الكوخ ولكنها وجدت نفسها عاجزة حتى رفعه عن الأرض...

جلست بجانبه حزينة حائرة وعادت تمسح جبينه من جديد بيدها الحريرية...

فتح الفتى عينيه من جديد وأدارهما بكثير من الجهد وكثير من الاستغراب واسعتين متورمتين:

- أين أنا؟!... من أنت؟!
- لا بأس عليك، تشجّع، هذا بيتك، انهض أنا أساعدك...

أخذ الفتى ينهض متثاقلاً مستنداً إلى كتف النّسَاجة، وبدأ ينقل خطواته بطيئة متقاربة، يعض على شفتيه ليَكُم أنَّة، ويجيل عينيه بذهول في ما حوله محاولاً أن يفهم أين هو وماذا حدث؟ وكأنه يتساءل: لعلها ملاك هبط من السماء!..

أحست النّسَاجة بأن في أنفاس الفتى لهيباً ناعماً، وبأن ذراعه الدافئة تنقل إلى عروقها تياراً سحرياً، فغمرتها نشوة لم تعرف لمثلها طعماً من قبل!..

ارتمى الفتى على سريره الخشبي الثخين وهو يرسل أنّة طويل مختنقة، ويردد...

- شكراً لك!..

كان الكوخ شبه خيمة من خشب وقش، بابه حصيرة من البامبو ونافذته طاقة صغيرة تطل على الوادي، أرضه عارية، تناثرت فوقها بعض الأواني الفخارية المحطمة، ونُتَفٌ من ملابس بالية، وجراب جلدي شبه فارغ، وفراش من قش ممزق وفروة سميكة مرقّعة وشبابة مهشمة..

- هل أحضر لك الطبيب؟!

تبسم الفتى ابتسامة مُرّة ثم رفع حاجبيه معترضاً..

- أنت بحاجة إلى طبيب!
- أعرف ذلك.. ولكن!..
- ولكن ماذا؟!

أغمض الفتى عينيه وكأن ذهنه المكدود يشرد في عالم لا حدود له...

- مسكينة هذه الفتاة... لا شك في أنها غريبة..

تحضر لي الطبيب من أين؟ من المدينة.. سيطلب الطبيب سلفاً أجرة الحصان، وأجرة المرافق، وبدل العيادة، وتكاليف الانتقال ورسوم المعاينة، وثمن الوصفة، وثمن الدواء... سيطلب ثمن بقرة.

هنا، انتفضت شفتا الفتى انتفاضة مرتعشة وتمتم...

- الفقراء ليس لهم طبيب!..

قال ذلك، ثم زحف بجهد وتصميم نحو الموقد.

أشعل بعض القش والأغصان اليابسة ثم شق قطعة قماش بحجم الكف، أحرقها ثم أخذ يذر رمادها فوق جرحه النازف...

وقطعت النّسَاجة شريطاً من طرف ثوبها وراحت تعصب ذلك الجرح بيد مرتجفة حانية.

- اصنع لك شيئاً من الطعام
- شكراً... أنا أساعدك...
- أيــن القــدر؟ حطــام...!.. لا حســاء إذن... يــا ظــالم حتى القدر؟!..
- عفواً يا آنسة... نشوي بعض البطاطا البرية...
- أججّـت النّسَـاجة النـار فأحسـت بحـلاوة الـدفء، وأطربتهـا ألسنةٌ اللهب تتراقص وتفرقع، وأعمدة الدخان الشفّاف تتدافع وتتماوج وتمتد وتتكاثف في سقف الكوخ القاتم، ثم تتراكض وتتزاحم عند الطاقة الصغيرة ثم تفر وتتلاشى في الفضاء الرحب...

ومع اللهب والدخان تصاعدت رائحة لذيذة شهية بدأت تملأ جو الكوخ الصغير...

البطاطا المشوية الساخنة بعد جوع طويل ولأول مرة في العمر... ما ألذّها!

وهذا المسحوق الأبيض الذي رشه الراعي فوق البطاطا وسمّاه الملح أي سحر له!..

أكلت بمزيج من النهم والحياء، وأكل الراعي بمزيج من المرارة والذهول...

كانت الشمس قد اختفت تماماً خلف الجبال الغربية ولم يبق من فلولها إلا أشعة أرجوانية تحوّلت إلى رمادية قاتمة ثم بدأ الظلام يلف السماء بعباءته الشاسعة...

أشعل الراعي السراج فأخذ نوره يتراقص على جدران الكوخ راسماً أشكالاً سحرية نابضة بحياة غير منظورة وبحركة لا تهدأ مضحكة أحياناً مؤنسة دائماً...

رتّب الراعي الفراش القشي فوق السرير الخشبي بعناية، ثم رمى فوقه غطاء سميكاً من الصوف ثم حمل فروته وخرج ثم أغلق الباب وهو يتمتم...

- أطفئي السراج من فضلك... وتصبحين على خير!

نظرت النّسَاجة من خلال فرجات الباب فرأت الفتى يلتف بفروته ثم يتكوّر أمام باب الكوخ بجانب كلبه ويستلقي بشيء

مـن العيـاء وكأنــه يستسـلم إلــى نــوم وراحــة هـو فــي أشـد الحاجة إليهما...

أطفأت السراج ثم ارتمت فوق السرير الخشبي.

بـدا الكـوخ مثـل كهـف الليلــة البارحــة مظلمــاً موحشــاً، فأحست بالقلق.

تطلعت من الطاقة فرأت أخواتها النجوم تتلألأ في الفضاء الشاسع البعيد البعيد تتراقص وتغمز فخيل إليها أنها شامتة هازئة بها...

أحست بالعرق يتصبب بارداً من جبينها وبشبه قبضة غير مرئية تشد على عنقها.

اتكـأت علــى حافـة السـرير وسـمّرت نظرهـا فــي الفضــاء اللا محدود...

أحست بلسعة برد فالتحفت بالغطاء وتمددت كئيبة منقبضة الصدر... كان الفراش خشناً والغطاء شبه شائك ومع ذلك فقد أخذت تحس بالدفء يسري في عروقها وبتيار من الطمأنينة والراحة ينساب هادئاً نامياً في أعماقها، وبدأت مئات الأفكار والصور والأسئلة تتزاحم في ذهنها...

من أنتِ؟!

هــذا الســؤال ظــل يحيّرهــا ويقلقهــا ويســتولي علــى كل تفكيرها...

هي تعرف أنها نجمة مغامرة هبطت من السماء، ولكن هذه الحقيقة يجب أن تظل سراً وإلا فإن رحلتها تعتبر فاشلة قبل أن تبدأ...

ماذا تقول؟! ماذا تدّعي؟!

عليها إذن أن تكذب... أن تلفّق أخباراً وتخترع أسماء وتزوّر حقائق...

- من أنتِ؟!
- أنا فتاة فقيرة متشردة.
- من أين جئت وإلى أين تذهبين؟!
- جئت من وراء النهر هائمة على وجهي نحو الجنوب.
- أين يعيش أهلك؟!
- أنا فتاة فقيرة متشردة لا أهل لي.
- هل أنت شحاذة متسولة؟

- لا... أنا نساجة أستطيع أن اكسب عيشي من عملي.

هنا أحست النّسَاجة بشيء من الراحة النفسية، هذه حقيقة نطقت بها بتواضع وصدق... هي نساجة ماهرة ومع ذلك فقد ظلت تخشى أن تكشف بذلك شيئاً من هويتها السماوية، ولكنها سرعان ما خفت هذا الخوف، فما أكثر النساجات الصبايا الفقيرات في هذه البقعة من الأرض؟..

ولكن لماذا هي فقيرة ومتشردة؟!

الصبية النّسَاجة الماهرة في هذا المجتمع يمكن أن تبقى فقيرة ولكنها تظل مشدودة إلى نولها حتى يريحها الموت أو تكل يداها وعيناها فتُنبذ وتلجأ إلى التسول.

أنا فتاة فقيرة... معقول

متشردة... غير معقول

إذن أنا فتاة فقيرة كنت أعمل خادمة نساجة وراء النهر والآن أمضي نحو الجنوب فقد سمعت أن شروط عمل النساجات في الجنوب أفضل...

- ما اسمك؟!

- اسمي نجمة... كوكب... لا... يجب أن أكون أكثر حذراً... اسمي!.. اسمي!..

وهنا بدأ التفكير الواعي يتلاشى رويداً رويداً أمام حلاوة النعاس كما تتلاشى السحب الصيفية في أرجاء السماء الصافية...

عندما فتحت النّسَاجة عينيها، كان شلال من أشعة الشمس ينساب عبر الطاقة تتراقص وتتعانق في تياره الشفاف ذرات ناعمة هائمة أبداً ذكرتها بأخواتها الهائمات أبداً في الفضاء اللامتناهي!..

كانت الشمس قد ارتفعت عالية تغمر بنورها حتى الأودية العميقة، وتبعث الحياة والنشاط في كل مكان:

العصافير ترفرف وتغني، الفراشات تلهو برشاقة بين الأزاهير الملونة الزاهية، والساقية تنساب مترّنمة مترقرقة.

وفي السفوح كانت مطارق الحجارين تدوّي فتتردد أصداؤها في الأودية السحيقة يرافقها بين الحين والحين خوار ممطوط أو ثغاء متقطع...

وفي الحقول كان الفلاحون يتحركون ببطء مثل أشباح تجرجر قيوداً غير منظورة، لا يرتفع لها صوت ولا يسمع لها دَبيب...

وهناك كان الراعي يجلس تحت صنوبرته العجوز صامتاً منكبّاً فوق نار خفيفة يحرك يده حركات رتيبة متلاحقة كأنه يقلّب شيئاً...

اقتربت منه فابتسم ونهض واقفاً مرحباً وهو يشبك يديه خلف ظهره:

- صباح الخير
- أهلاً، كيف أصبحتِ؟
- جيدة... وأنت
- لا بأس
- آسفة... حرمتك من الفراش
- الأرض هي فراش الراعي

كانت رائحة شواء تنبعث من الموقد الارتجالي، أحست النّسَاجة بأنها لذيذة ومشهيّة، فأخذت تدير عينيها هنا وهناك كأنها تبحث عن شيء...

- استريحي... اجلسي... سأقدم إليك شيئاً من الطعام.

كان الراعي يخبئ وراء ظهره عوداً شكّ فيه بضعة عصافير مشوية لدُهنها المذاب رائحة أخاذة شهية...

قدّم إليها العود بشيء من الزهو.

- هذا صيد الصباح، صدته بالفخ... حظك جيد.

لم تفهم ماذا يعني "الفخ" ولكنها أحست بصدمة المفاجأة وبشيء من التقزز:

- لا... شكراً... أفضل بعض الفواكه
- بهت الراعي قليلاً ولكنه كرر الدعوة:
- لا تكليف... عصفور لي وعصفوران لك...

حركت يدها معترضة وهي تحاول الابتسام

لماذا؟

هذا الراعي قاسي القلب رغم مظهره الناعم هَمَجي رغم تلطفه... يقتل العصافير الوديعة المغردة ليأكلها، ما الفرق بينه وبين الذئب آكل الغنم؟!... حوّل العصفور الجميل الطروب إلى جيفة مشوهة ثم يقول لي مزهواً: تفضلي!..

لا...

وفي الوقت ذاته كان الراعي يفكر بينه و بين نفسه: بعض الناس يكتفون في الصباح بكعكة أو ثمرة أو فنجان قهوة...

- تفضلي... هذه بعض الثمار، أرجو أن تكون ناضجة مقبولة...

بدأت تقضم إجاصة برية ولكنها تشعر كأنها تقضم قطعة من الخشب الطري.

هل كانت الإجاصة عديمة الطعم واللذة أو أن شهيتها هي التي تبخرت؟!

لم تستطع أن تجزم فتابعت المضغ ببطء شديد صامتة مطرقة.

- هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟!

لم تجب!..

ظلت صامتة مطرقة تتابع قضم إجاصتها بتثاقل

وألقى الراعي سفّوره فوق صخرة وجلس مطرقاً صامتاً مذهولاً...

اقتربت منهما فجأة وقع حوافر حصان، فانتبها مذعورين!

- من هذه؟!

كان الصوت ثخيناً أجش صادراً عن ذلك الرجل ذي القبعة العريضة والعصا السوداء اللماعة.

وقف الراعي باحترام ممزوج بالخوف ثم انحنى مرة أو مرتين وهو يضع يديه فوق صدره.

- هذه خطيبتي أيها السيد... أرسلها أهلي من القرية لتسأل عني.
- متى وصلت؟!

قال ذلك وهو ينظر إليها بعينين شرهتين وشفتين مرتجفتين

- وصلت أمس عند الغروب.

تململ الفارس فوق بغله القصير القوائم وهو يدق بعصاه جزمته الضخمة بحركات عصبية تنفث غضباً.

- نامت معك في الكوخ؟!

عفواً يا سيديّ.. أعطيتها فراشي ونمت في العراء.

هنا، رسم الفارس على شفتيه ابتسامة راضية وتمتم وهو يسمّر ناظريه في الفتاة.

- أحسنت... طقوس الأجداد يجب أن نحافظ عليها، ولكن من الأحسن أن لا تبقى هذه الفتاة وحدها معك... هي ليست زوجتك، هي خطيبتك... لا يصح أن تبقى وحدها معك، أنت شاب طيب سمعتك في البلدة جيدة، يجب أن تحافظ عليها أرسل الفتاة تعيش مع خادمتي في البيت إذا شاءت أن تبقى هنا... مفهوم!
- ولكن إذا سمح سيدي أن تبقى معي يوماً أو يومين... أنت ترى أنني بحاجة إلى مساعدتها.

قال ذلك وأشار إلى الرضوض البنفسجية والجرح المعصّب:

- أنا لم أقل أرسلها الآن... غداً أو بعد غد... أنا صدّقت أنك تنام في العراء وتترك لها الفراش ولكن غيري قد لا يصدق... ألسنة الناس طويلة!..

قال ذلك ثم تابع طريقه متباطئاً وهو يلتفت ليرمي بنظراته النارية الفتاة التي ظلت صامتة مطرقة كأنها تمثال من مرمر!..

لم تسأل من الفارس!

لم تشك أبداً في أنه سيد القرية، صاحب القطيع، فأحست بأن خطراً يتهددها، بدأ يقترب منها ويجثم على صدرها، فألقت ما تبقى في يدها من الإجاصة ثم دفنت رأسها بين يديها وبدأت تفكر بقلق ظاهر:

- هذا الراعي إنسان غريب، يبدو لطيفاً أنيساً ولكنه يبدو أيضاً قاسياً ظالماً عندما يقتل الطيور اللطيفة المغردة...

يمنح فراشه لفتاة غريبة وينام مع كلبه في العراء ولكنه يَعِدُ أيضاً بتسليم فتاته إلى رجل ظالم قاس!..

يبدو بسيطاً صادقاً ولكنه بدا قبل قليل ماكراً كذاباً...

ولكن!..

هل أنا أفضل منه؟!

أنا أيضاً قتلت البعوضة المسكينة، وجئت أنام في بيت الراعي بلا حذر، وأنا أيضاً هيأت سلسلة من الأكاذيب عن اسمي وبلدي وأسباب تشردي... هل ألومه؟!

عندما عادت النّسَاجة والراعي، مع العصر، نحو الكوخ، كانت امرأة كهلة تنتظر أمام الباب، وكانت قد انتهت، لتوّها، من تفريغ سلتين كبيرتين مربوطتين إلى شيّال من البامبو.

وقفت المرأة ورفعت الشيال إلى كتفها ثم أشارت بيدها نحو البيت الكبير في القرية القريبة، بحركة جافة، ودون أن تنطق بأي حرف، ثم استدارت ومشت باتجاه القرية دون أن تحيي ودون أي تلتفت...

كانت هدايا سيد القرية لراعيه و" لخطيبة" راعيه عشاء جاهزاً من لحم ورز وخضر، وقدراً جديدة وثوباً نسائياً وحذاء نسائياً من قماش أصفر ذهبي، وغطاء مزركشاً وبعض المراهم وشبابة.

ألقى الراعي نظرة خاطفة على الهدايا ثم وقف حائراً قلقاً لا يدري ما يعمل.

وألقت الفتاة نظرة عجلى ثم دخلت الكوخ وأغلقت خلفها الباب بعصبية ظاهرة، ثم جلست على حافة السرير كئيبة صامتة شاردة الذهن:

- أمس رأته يرفس الراعي بقدمه ويهشم رأسه بالعصا، واليوم رأته يلاطف الراعي ويثني على سلوكه وتهذيبه!..

أمس حطم قدره وشبابته واليوم يقدم إليه قدراً جديدة وشبابة نحاسية!..

أمس مزق فراشه البالي واليوم يهديه غطاء مزركشاً!..

أمس أثخنه بالجراح واليوم يهديه المراهم يداوي بها جراحه!

وهذا الراعي يقف خائفاً خاضعاً أمام جلاده...

... يقتل طيور السماء ويرتجل الكذبة تلو الكذبة!

من أصدّق، وبمن أثق؟!

هذا الكوخ أشد خطراً من الكهف!..

قالت هذا ثم تلمست عوداً ثخيناً كان إلى جانب الموقد واستعدت للمجابهة...

ظل الكوخ ساكناً... الباب مغلق والنجوم تلمع مشعشعة من خلال الطاقة في الفضاء الرحب...

زحفت ببطء نحو الباب وألقت نظرة حَذِرة.

كان الراعي مكوّماً تحت فروته بجانب كلبه كأنه يستدفئ به

كان قلقاً مؤرقاً على ما يبدو ويستند حيناً إلى ذراعه اليسرى وحيناً إلى اليمنى، يتكئ حيناً، ويستند إلى جذع الشجرة أحياناً...

ماذا يدبّر؟!

عليها أن تكون مستعدة لكل طارئ.

تحسست هراوتها... انها ضخمة ومتينة...

ولكن الراعي ظل يتقلّب في مكانه وهو ينفث أحياناً شبه لهاث مكتوم، ثم يحاول أن ينام ولكن دون جدوى...

آه... لو أنها استطاعت أن تقرأ أفكاره... أن تكتشف الأحاسيس التي تؤرقه؟! لعله الجرح؟! ولكن الراعي لم يتلمس جرحه أبداً ولم تبدر منه أية أنّة؟!

إذن ماذا؟!

أحكمت إغلاق الباب ثم تسللت إلى الفراش تحاول أن تنام ولكنها راحت تتقلب قلقة مؤرقة تتنازعها شتى الأفكار والتخيلات والتساؤلات...

- غداً يسلمها الراعي إلى سيده

غداً تترك الكوخ الفقير الضيق إلى الدار الغنية الواسعة

هل ترضى؟ هل هي مضطرة لأن ترضى؟!

ربما كان السيد شراً من الخادم؟

وربما كان الخادم شراً من السيد

من يدري؟!

شرّان، أحلاهما مر!..

بدا الراعي كذاباً وجباناً، ولكن هل هو في أعماقه كذاب وجبان لعله مرغم على أن يكون كذلك؟!

والسيد بدا اليوم كريماً مضيافاً فهل هو في أعماقه كريم مضياف

لعله يتصنع الكرم لغاية في نفسه؟!

هل تفر من الاثنين، من كليهما!؟

ولكن كيف تفر قبل أن تبدأ المعركة؟!

ستبقى في الساحة ولن تنهزم!

إنها تحس في أعماقها بأنها ما زالت ابنة السماء، جاءت متمردة ولن تتراجع!..

لن تتراجع أبداً...

كان رأسها ثقيلاً وعيناها مقرّحتين عندما حاولت أن تنهض مع الفجر الجديد.

وعندما ألقت نظرة من شق الباب، كان الراعي يمسح بالمرهم جراحه وقد تعرى حتى خصره.

كانت البقع السوداء والخطوط الحمراء الداكنة فوق جلده تذكّرها بالنمر أو الفهد الذي رأت بعض صوره في مكتبة المملكة السماوية.

أحست بأنَّ عليها أن تساعده، بأن تكون ممرضته وطبيبه ولكن هل تستطيع أن تتحمل منظر تلك الجروح النزّازة وبقع الدم المتجمد؟

هل تخرق الآداب التي تعودتها إن هي جلست مع الفجر إلى جانب شاب نصف عار تمسح بيدها على صدره وظهره؟..

- هل أساعدك؟

أجفل الراعي الشاب كأنّ نحلة لسعته وأسرع يرمي فروته فوق منكبيه العاريين.

لم تنتظر جوابه بل تقدمت منه بشجاعةِ بنتِ السماء فأزاحت الفروة عن كتفه وبدأت تمسح بيدها الدافئة الناعمة الجراح والرضوض التي لم تستطع أن تصل إليها يداه.

وتساءلت: هل يحق لها أن تسأله عن أسباب تلك الجراح؟

قد تحرجه وقد تفتح له جراحاً جديدة، يكفي ما هو فيه...

ولكنها ما هبطت إلى هذا العالم السفلي لتكون خرساء هيّابة!

قرأ الراعي في عينيها حيرتها السافرة، وأحس بأن هناك سؤالاً يقفز إلى شفتيها ولكنّ السؤال سرعان ما تلاشى كما تحترق فراشة على شفتي مصباح.

- تريدين أن تعرفي...
- أخشى أن يزيدك الحديث ألماً
- لا بأس: ليست هذه أول الآلام ولا آخرها!

... الجبل الشمالي المطل على قريتنا، اعتبَرَهُ الأهالي منذ زمن بعيد، منطقة رعي لكل القرية، منطقة مشاع، ولتنظيم هذا

الرعي قرر الأهالي بالاتفاق مع العمدة على أن يكون سفح الجبل الأمامي منطقة رعي في السنة الأولى ويُمنع الرعي في السفح الخلفي وفي السنة الثانية يسمح في السفح الخلفي ويحرم في السفح الأمامي وهكذا...

هنا توقف الراعي يلتقط أنفاسه فقد بدا متعباً بعد ليلة معذّبة.

- خذ راحتك... لست مستعجلة!

لم تكن النّسَاجة صادقة في أعماقها، فقد كانت فعلاً متشوقة لمعرفة بعض مشاكل هذا الكوكب الذي هبطت إليه والذي ظنته لأول وهلة أنه الجنة بأنهارها وأطيارها وظلالها ونسيمها ونعيمها...

وكان الراعي بدوره، راغباً في متابعة حكايته فقد أحسّ بأنه ينفس عن نفسه بعض الشيء فقد طالما ظل محروماً ممن يصغي إليه ويهتم به وقد صنّفه مجتمعه القاسي في أسفل سلم الأُجراء..

لم يكن بينه وبين الأهالي أية ضغينة ولكنه، بحكم عمله، كان عليه أن يتحمل غلظة بعضهم ونتائج بعض المآزق التي قد يزقه فيها عمدة القرية الذي كان يحلو له أن يردد بينه وبين نفسه المثل الذي تعلمه من زوجته الجديدة: اذبح الجدي لتأديب القرد.

وتابع الراعي حديثه:

- وفي إحدى رحلات الصيد مر العمدة بالحِمى، المنطقة المحّرمة فأدهشه عشبها النامي النضير وغدرانها الصافية المترقرقة فأرسل أحد أعوانه يطلب منّي أن أنقل قطيعه إلى تلك المنطقة.
- ولكنها منطقة محرمة.
- محرمة على غير العمدة– الأرض وما فيها لواليها
- ولكن العمدة ليس الوالي
- لا تتفلسف!... كل عمدة وال في بلدته!..
- والأهالي ربما انتقموا مني
- تخاف منهم!؟ هذا بقر العمدة وأنت راعي العمدة

- ولكن!
- أنا بلّغتك أمر العمدة وأنت ترفض أن تنفّذ... طيّب!... وكان ما كان...

أخذ الراعي يجفف عرقه الذي بدا يتجمع على جبينه وعنقه نتيجةً لحرارة الشمس التي بدأت ترتفع وللجهد الذي كان عليه أن يبذله في حديثه.

- لماذا لم تربط الحمار في المكان الذي يقول لك صاحبه، حسب أمثالكم الشعبية؟
- تمرّ بي ساعات أحس فيها بأنني إنسان، بأنني شاب حر ولست أجيراً مستعبداً، يحق لي أن أرفض ما يجب عليَّ أن أرفض.
- ولماذا لا تفضحه أمام الفلاحين؟!
- هذا العمدة ليس أقل مكراً من زملائه! يأمرني سراً بأن أنقل قطيعه إلى المنطقة المحرمة فإذا سكت الأهالي خوفاً أو تسامحاً تجاهل هذه المخالفة وأفاد منها وإذا احتج الأهالي

أو تعرضوا لي اتهمني وأنّبني وربما عاقبني على مرأى ومسمع منهم!

- يصّدقونه ولا يصدقونك؟!
- بعضهم يصدقونني في أعماقهم ولكنهم لا يجرؤون على تكذيب العمدة.
- هم يخافونه إلى هذا الحد؟!
- هم لا يخافونه بذاته ولكنهم يخافون الذين هم فوق، يخافون السلطة التي تحميه، هو ممثلها، وممثلها يجب أن يظل قوياً مرهوباً.
- ولكن الحق مع الذين هم تحت!
- الحق شيء والمصالح المتبادلة شيء!.. الدنيا مصالح.
- ولكن أمثال هذا العمدة قد يسيء إلى سمعة السلطة التي تحميه
- السلطة تكون أحياناً عشواء فتتراكم أخطاؤها مثل قطرات تتراكم في كأس قد يطفح ذات يوم، وقد تفتح السلطة عينيها فتدفع بمثل ذلك العمدة إلى المحرقة، كبش فداء، أو تبدّله

كما يبدل الفارس حصانه الكليل أو سترته الملطخة، وحذاءه الضيق.

- أظن أنك لا تفكر في رفع شكوى إلى المخفر
- المخفر يخفر العمدة ولا يخفر أمثالي من الناس
- معنى هذا أنك ترضى بأن تظل أجيراً مستعبداً، لا شاباً حراً يرفض أحياناً ما يجب أن يرفض.

لا تفتحي لي جراحاً جديدة– أرجوك– لا تكوني قاسية عليَّ، أنا راعي بقر وهو عمدة القرية... علينا، نحن المعذّبين في الأرض أن نصبر طويلاً وأن نحتمل كثيراً... قد يظننا الناس أذلاء أغبياء كالقطيع، ولكن الأحقاد المكبوتة المتراكمة قد تتحول إلى تيار جارف كالتيار الذي جرف العمدة السابق.

- ولماذا يسلك العمدة الجديد الطريق الذي انقلبت فيه عربة زميله العمدة السابق.
- يعتقد العمدة الجديد أن الخطأ ليس في الطريق وإنما في الطريقة، الخطأ ناتج عن رعونة السائق أو غفلته ومن هنا

يبدأ الاعتدادُ يولد في نفس العمدة الجديد الغرورَ ومن ثَمَّ الرعونة أو الغفلة..

عفواً... وأنا غفلت عن الفطور!..

قالت ذلك، ثم قفزت نحو الكوخ تجهزّ على عجل فطوراً مرتجلاً...

- آه جاءت تأخذك!

هتف راعي البقر، وهو يشير إلى امرأة تحمل في كوعها سلة وهي تصعد التلة باتجاههما.

- لا تخف عليّ! أجابت النّسَاجة.
- ولكنه نمر شرس!
- بعض النمور تتحول إلى قطط أمام أنانيّاتها
- أهل القرية يلقبونه: "الحصان الشموس"
- اللجام الرخو يشجع الحصان على أن يكون شموساً
- أنا أحب أن تبقي معي!
- وأنا أيضاً أرغب من كل قلبي أن أبقى معك، لكنه هو الأقوى الآن وسيكون النضال معه عسيراً وطويلاً، كن مطمئناً.

فـي هـذه الأثنـاء كانـت المـرأة الكهلـة تقتـرب وهـي تـروّح بمروحة من سعف النخيل، وقد بدأت تلهث لهثاً متقطعاً.

أومأت برأسها في شبه تحية جافة، ثم وضعت السلة على الأرض أمام الراعي وأشارت إلى الفتاة أن اتبعيني!

راح الراعـي يشيّع بنظـرة حزينـة ذاهلـة الشـبحين المنحـدرين نحو الوادي مطرقين ساكتين.

لـم تلتفـت النّسَـاجة مودّعـة، فقـد خافـت عليـه مـن نظـرات الـوداع، أمـا قلبهـا ظـل يلتفـت نحـو كوخـه الصـغير قلقاً حزيناً.

في الطريق نحو القرية مر بهما عجوز أحدب يسوق بقرة عجفاء، نظر إلى النّسَاجة من تحت قبعته القشية العتيقة ثم تمتم:

- صيده ثمين هذه المرة!

وتغامزت بعض الفلاحات من الحقول، وارتفعت ثرثرتهن وحركات أيديهن المتلاحقة، تشير مرة إلى الفتاة، ومرة إلى بيت العمدة، راسمة في الهواء علامات استفهام لا تحصى!

وتراكض بعض الصبية، بنين وبنات، يتفرسون في القادمة الجديدة، وتمتم طفل كبير:

- أي والله حلوه!

عند مدخل القرية، انتصب جسر حجري ذو قنطرة عالية فوق نهر سريع الانحدار، غزير المياه، ارتفعت على جانبيه بعض المطاحن المائية، لهديرها دوي متلاحق وأنين ممطوط.

من هنا أخذت القرية اسمها: "قرية الطواحين"

كانت بيوت القرية متلاحقة ومتشابهة.

سقوف مُسنَّمة من قش تتسدل حتى ارتفاع قريب من الأرض، باب وشباكان وسياج ثخين من أخشاب وأغصان يابسة تتسلق عليها بعض الخضر، وينشر فوقها بعض قطع الغسيل الداكنة الألوان، في الباحة الضيقة تكدست سلال عتيقة وأدوات زراعية وأكوام من الحطب وقصب الذرة وفتات الفحم الحجري.

الأزقة ضيقة متعرجة ترابية، تركت الخيول والأبقار والماعز آثار أقدامها متشابكة متنافرة فوقها.

لم تكن بهيجة تلك القرية، كانت رتيبة بلا ألوان ولا حركة ملحوظة...

بيت العمدة الواسع يتربع فوق تلة صغيرة، سوره مرتفع من الطوب الأسمر بوابته عالية عريضة يَجثم على عتبتها تمثالان من الرخام الرمادي يمثلان شيئاً يشبه لبدة الأسد، واجهة البناء يحجبها حاجز حجري كتبت فوقه عبارات تمجد صاحب البيت.

البيت من طابق واحد مرتفع السقف، جدرانه مغلقة من الخارج كأنها جدران السجن، يطل من الداخل على حدائق صغيرة، وممرات متعرجة، وبركة ماء انتصبت على حافتها سقيفة خضراء الأعمدة خضراء السقف، توصل إليها ممرات ضيقة تكتنفها صخور شبه منحوتة، يشبه بعضها، من بعيد، رأس حيوان، أو طير أو سحابة!..

أمام السقيفة كانت قناة كثيرة التعرج كأنها متاهة متحركة، تنساب ببطء ونعومة حاملة بطيخة وعدداً من الثمار المختلفة في طريقها نحو الجالسين على أريكتين من الخزف الأزرق السماوي.

في نهاية الممر مرآة جدارية ضخمة تضيف إلى الممر الصخري مدى أطول يزيده رونقاً وغرابة.

كان سيد القرية وسيدتها ينتظران الخادمة الجديدة في السقيفة وهما يحتسيان الشاي في أقداح صغيرة وقد وقف خلفهما خادم طفل يحمل مروحة كبيرة من ريش الطاووس يحركها فوق رأسهما من حين إلى حين.

التفت العمدة الكهل نحو زوجته ثم أشار بغليونه الطويل إلى الفتاة القادمة كأنه يقول: هل أعجبتك!؟

توقفت الزوجة عن شرب قدح الشاي الذي كانت ترفعه وظل وجهها جامداً كتمثال من خشب، وظلت عيناها الصغيرتان اللماعتان مسمّرتين في وجه القادمة الجديدة كعيني نسر محنط.

وبحركة عصبيه حادة أشارت إلى الخادمة الكهلة نحو أقصى البناء حيث امتد قطار من الغرف الصغيرة المنخفضة، ثم وضعت القدح جانباً ورفعت ذيل ثوبها الطويل وسارت خلف الخادمتين بخطوات بدت مضطربة، على غير عادتها...

- اسمعي يا بنت! انت الآن في بيت العمدة! بيت لا لهو فيه ولا مـزاح ولا خفـة! التقاليـد هـي التقاليـد ويجـب أن تُراعـى! لا فرفرة ولا ثرثرة، أمرك سيدي! حاضر سيدي! أسرار البيت في البيت.

مهمـا حـدث لـم أسـمع شـيئاً! لا أعـرف شـيئاً! لسـانك يقطـع إذا نطق.

توقفت السيدة قليلاً تلتقط أنفاسها ثم استدارت نحو الخادمة الكهلة: عينك عليها! أنت تعرفين جيداً ما يجب وما لا يجب.. خطؤها خطؤك أنت! أنت أمينة عليها ومسؤولة عنها! حذار!

قالـت ذلـك وأومـأت برأسـها نحـو السـقيفة وهـي ترسـم فـوق شفتها العليا بأصبعيها ما يشبه الثمانية.

تمهلت السيدة برهة ثم استأنفت حديثها وتوجيهاتها الجافة باللهجة نفسها والعنفوان نفسه:

اسمعي يا بنت!

شعر سائب على الكتفين، ممنوع!

ثياب غير ثياب البيت، ممنوع!

أحذية ملونة، ممنوع!

الخروج من البيت، بلا إذن، ممنوع!...

وتابعت سيل ممنوعاتها بحدّة وصرامة، وظلت النّسَاجة مطرقة تستمع بصبر عجيب كأنها دمية بين يدي طفلة عابثة.

عادت السيدة إلى السقيفة تمشي مشية الديك المنهزم، ولو انها حاولت أن يظل رأسها عالياً وقامتها منتصبة.

كانت شتى العواطف تتنازعها، ستكون فخورة بهذه الخادمة الجميلة الشابة، فلا زوجة رئيس الشرطة ولا مدير المركز يحلمان بمثل هذه الخادمة في بيتهما.

ولكنها ظلت، كامرأة كهلة، تحس بالغيرة، فقد تخطف منها زوجها أو على الأقل قد يهملها الزوج! وها هي تلاحظ ذلك في كل حركة من حركاته، ولكنها تعرف نفسها جيداً وتعرف زوجها جيداً.

فلا خوف حتى الآن! ولكل حادث حديث!..

أما العمدة فقد ظل يدخن غليونه الطويل وقد مط رقبته، وسمَّر نظراته في طيف النّسَاجة البعيد.

غرفة الخادمة الجديدة لا تختلف كثيراً في شكلها وموجوداتها عن كوخ الراعي: سرير ثخين من الخشب فوق شبه فراش ولحاف، ثم بعض الأدوات اليومية البالية.

الكوخ والغرفة متشابهان، هناك تنتشر ظلمة كئيبة، وهنا ينتشر ظلام حزين.

هناك يرسم الفقر لوحاته على الجدران وفي كل ركن من الكوخ، وهنا يرسم البؤس لوحاته على الجدران وفي كل ركن من الغرفة.

ولكن لماذا ظلت النّسَاجة تحس هناك بالطمأنينة والسعادة وتحس هنا بالقلق والضيق!

السر في السكان لا في المكان!

ربما كان هذا صحيحاً إلى حد بعيد!

في الغرف المتلاصقة المجاورة تعرفت على جاراتها الفلاحات الأجيرات كلهن من العجائز أو من الشابات اللواتي عجل الشقاء والإرهاق في ذبول شبابهن في وقت مبكر!...

يحل الجفاف فيهجر الفلاح الصغير أرضه ويلجأ إلى بعض الفلاحين الأغنياء المستعدين دائماً لاقتناص هؤلاء المنكوبين وتحويلهم إلى أجراء! وما أكثرها سنوات القحط!

وقد تترك السماء ميازيبها مفتوحة يوماً أو يومين فتغرق الزرع الأخضر أو تحني هامات السنابل الناضجة ثم تجرفها إلى الأودية السحيقة فتشرد عائلات بأكملها وتضيف إلى ملايين الأجراء آلافاً جديدة.

وتساءلت النّسَاجة بينها وبين نفسها:

في السماء امبراطور صارم دقيق كل شيء لديه منظم متناسق، فلماذا تظل هذه الأرض البهيجة المفعمة بالحياة والإبداع لماذا تظل في مثل هذه الفوضى الشائنة!؟..

لماذا يظل الفقراء راضين بفقرهم وحرمانهم؟! ويظل الذين هم فوق فوق والذين هم تحت تحت؟ وإلى متى؟!..

ولكنها عادت فتذكرت حديث جارتها الأرملة العجوز. حديث ليلة طويلة اختلستها النّسَاجة رغم الرقابة الشديدة ولم يخطر في بالها، على الإطلاق، أن تكون حارستها الخادمة الكهلة قد يسرت لها ذلك اللقاء!

تذكرت أن الفقراء يثورون أحياناً ضد مستغليهم وأن الذين هم فوق لا يظلون دائماً فوق والذين هم تحت لا يظلون إلى الأبد تحت. وهذا واحد منهم، عمدة القرية، سيد الخدم والأجراء اليوم وواحد من أجراء الأمس المعذبين.

كان عمدة القرية السابق ملّاكاً جشعاً ظالماً، يتعلق بمن هم فوق ويستبد بمن هم تحت، يسرق اللقمة من فم هؤلاء ويقدمها بابتسامة ماكرة إلى أولئك!

كانوا شبه عصابة: مدير المركز والجابي والمرابي والعمدة.

يتواطأ بعضهم مع بعض ويتستر بعضهم على بعض، تشاركهم وتحميهم عصابة أوسع جاهاً ونفوذ!

بدأ الأهالي يتذمرون سراً وهمساً في بادئ الأمر، ثم بدأت شرارات النقمة تنبثق هنا وهناك، ولكن العصابة ظلت قادرة على إطفائها في مهدها بكل الوسائل التي تملكها. وما أكثرها!

وبرز على رأس الجماهير الفلاحية المعارضة أجير شاب رأى فيه زملاؤه من الأجراء والفلاحين الصغار المعذبين قائداً قيدوماً فأيدوه ورفعوه، ورأى فيهم قوة نامية فاعتمدها، وعبأها بانتظار الفرصة المناسبة.

وجاءت الفرصة!

تلاحق الجفاف عاماً فعاماً واستعد الفلاحون الأغنياء لاسترقاق أجراء جدد، ولكن الفلاحين الصغار لم يستسلموا بسهولة كما حدث في الماضي، بل رفعوا أصواتهم يطلبون من السلطة المحلية المساعدة ومن الفلاحين الأغنياء قروضاً عينية بفوائد معقولة، ولكن السلطة المحلية ظلت تَعِدُ وتماطل وظل أصحاب الأهراء ينتظرون بصبر ومكر رضوخ الفلاحين لشروطهم الجشعة.

هاجمت جموع الفلاحين بيت العمدة فاستنجد العمدة بالمدير ولكن المدير تباطأ هذه المرة! ولماذا يغامر؟ من صالِحِه أن يؤيد المنتصر. فلينتظر!

واضطر العمدة إلى الهرب من القرية ليلاً يحمل ما استطاع حمله!

لجأ إلى المدير ولكن المدير لم يتحمس لإعادته إلى سلطانه.

فتابع رحلته بعيداً بعيداً واختفى كما تختفي سمكة في قاع البحيرة الواسعة.

وتربّع الأجير الثائر المنتصر على سدة العمدة المهزوم.

زوجة العمدة السابق الفتاة المدللة الجميلة أصبحت زوجة العمدة الجديد وظل الأجراء القدامى أجراء الفلاحون المستأجرون فلاحين مستأجرين واكتفى العمدة المنتصر بأن وزع عليهم الحبوب المخزونة في اهراء العمدة الهارب.

وبدأ العمدة الجديد يستلذ حياة العمدة السابق.

زوجة شابة ذكية، وبيت فخم، وأملاك واسعة، وخدم يتراكضون بين يديه والوجهاء، والمتنفذون يجرفونه نحوهم بنعومة ودهاء.

وبدأ يؤمن بأن العصا من الجنة، وبأن السيف أمضى من العصا، والمال أمضى من السيف بالإضافة إلى الأسلحة الأخرى التي أخذ يتدرب عليها، حيناً على يد زوجته، وأحياناً على يد أنداده من أصحاب الجاه والسلطة!

أخــذت دار العمــدة الجديــد تــزدحم بــالزوار أصــحاب الجاه والمال!

جـذبهم إليهـا الأحاديـث عـن الخادمـة الجديـدة الجميلـة الغريبة الديار.

وراق لهم أن يجلسوا في السقيفة الخضراء يتلذذون بالفواكه الباردة تسوقها إليهم الساقية الصافية المتعرجة، ويرشفون أقداح الشاي أو النبيذ، تحملها إليهم الفتاة الساحرة تسقيهم من يدها خمراً ومن طرفها خمراً! فيمسّد الشيوخ لحاهم وهم يسترقون النظر إلى وجهها المشرق، ويتلمّظ الكهول وهم يمسحون على شفاههم البليلة الجافة.

مَن هذه الفتاة؟ مِن أين جاءت؟!

هذا السؤال وجهه كل زائر جديد وكرره بعض الزوار القدامى الذين لم يكتفوا بالجواب المقتضب التقليدي الذي كان يردده العمدة صاحب الدار:

- هذه خطيبة ولدنا الراعي!

كانت كلمة "ولدنا" تثير الدهشة في أذهان الزوار فهم لم يعهدوا "الحصان الشموس" بهذه الرقة فيسمي راعي البقر "ولدنا".

وكانت هذه الكلمة تحفر في قلب صاحبة البيت كما تحفر دودةٌ تمرة.

هذه النعومة الطارئة ليست بريئة أو خالصة.

وهذا التوّدد المفاجئ يغلف نيات تقلق السيدة وتؤجج في صدرها نار الغيرة.

لم تعد هي، إذن، مركز اهتمام الزوار والوجهاء وسيدة محافلهم، بدأت الخادمة تزيحها عن هذا المركز رويداً رويدا حتى كادت تخرجها من الدائرة!

هذا لن تسمح به السيدة التي ظلت تردد بينها وبين نفسها:

يجب أن أقصيها قبل أن تقصيني!

ولكن كيف؟!

السبيل الوحيد هو المضايقة.

أنا السيدة وهي الخادمة.

أحرجها فأخرجها.

ولكـــن الخادمـــة الجديـــدة ظلـــت: "أمـــرك ســـيدتي! حاضر سيدتي!"

فقد بدا واضحاً أن قلق السيدة من هذه الطاعة المرحة والملمس الناعم اللذين تبديهما الخادمة قد أخذ يتزايد فيخيل إليها أن جذور منافستها الشابة قد بدأت تترسخ أكثر فأكثر في بيت العمدة، وإذا طال الزمن فقد يصعب اقتلاعها وتقع الكارثة.

وبدا العمدة الجديد فخوراً بخادمته الجديدة و"بولده" الراعي: هو شاب نشيط يستحق هذه الفتاة النشيطة.

ولكن تقاليد الزواج يجب أن تراعى: الاستقصاء عن الأصل والفصل، حفلة الخطبة، المهر، تكاليف العرس... هذه الأشياء في رأيه، لا تسلق سلقاً وإنما تحتاج إلى عمليات طويلة وطويلة جداً أحياناً.

كان هو يعرف أنه يكذب على نفسه وعلى الناس، وكان كل الناس يعرفون أنه يخطط لإزاحة السيدة القديمة وإحلال

سيدة أنضر شباباً وأكثر فتنة وأكثر قدرة على اكتساب ود أنداده من الوجهاء والمتسلطين.

كان حصاناً شموساً ولكن اللجام ما زال متيناً في قبضة السيدة العريقة في السيادة، لهذا لجأ إلى المراوغة والتذلل ولم يجرؤ على خوضها معركة سافرة وهو يدرك أنه الخاسر هذه المرة، فقد تخلخلت جذوره في صفوف الشعب الكادح ولم تستطع أن ترسخ في الطبقات الحاكمة منفردة عن جذور زوجته العريقة الراسخة.

بدا العمدة الجديد، في أول الأمر، فخوراً بخادمته الشابة الفاتنة ولكنه بدأ يشعر بما بسّببه وجودها في البيت من مضايقات:

خاف أن تتآمر عليه زوجته فتتخلى عنه كما تخلت ببرودة عن زوجها العمدة المهزوم. إنها ما زالت عصاه التي يتوكأ عليها والتي يضرب بها، والرابطة الوحيدة التي تربطه بمن هم فوق.

وخاف أن يسلبه من هم فوق صيده الثمين ولا قدرة له على معارضتهم معارضة سافرة حاسمة.

ومِن ثَمَّ شعر بأنه أصبح أسير بيته، إذا غادره، غادره قلقاً وعاد إليه مسرعاً خائفاً، تحول إلى حارس شديد اليقظة غالباً، متغافل أحياناً وأحس بأنه تحول إلى خادم لضيوفه المتلاحقين الذين كانوا يدقون بابه، أو يدخلون هكذا بلا كلفة وبلا استئذان!

كان يصرف ويبذر بلا حساب، أما الآن وقد أصبح بيته منتدى القاصي والداني من وجهاء المنطقة فقد بدت ميزانيته مضطربة ويده شبه مغلولة.

بدا عاجزاً عن إزاحة السيدة، الحاجز المنيع، وبدا قريباً من هاوية الإفلاس فلا مخرج له من هذه الورطة إذن إلا بترحيل هذه الفاتنة التي شاءها مصدر قوة ودعم لمركزه المخلخل فلم تزده إلا ضعفاً وتصدعاً.

يجب أن يرحلها إذن، ولكن يجب أن تظل في الوقت نفسه قريبة منه، فقد تسمح الفرصة بأن يستعيدها.

لـم يشـأ أن يعتبـر نفسـه مهزومـاً، ورضـي بالنتيجـة هدنـة لا استسلاماً.

وحاولت الزوجة أن تقصي الفتاة من المنطقة كلها ولكنها لم تجد في نفسها الجرأة على المضي في المعركة حتى النهاية فوافقت مرغمة على تزويجها وإخراجها من البيت، وبعض الشر أهون على السيدة من بعض!

جلس الثلاثة في غرفة قصية في طرف البيت الواسع: السيد والسيدة والراعي:

- أنا وليها والمسؤول عنها، قال العمدة
- هذا لطف منك يا سيدي
- يجب أن تخطبها مني حسب الأعراف
- ولكنها خطيبتي!
- الخطوبة لها أصول وليست كلمة في الفم
- أمرك سيدي!
- ويجب أن تقدم مهراً وأن تكتب متأخراً

- أقدم مهراً! ومن أين؟ أنت تعرف حالي! لا أملك إلا جاموسة! هي رفيقة حياتي لا أستطيع أن أبيعها!
- وماذا تريد أن يقول عني الناس إذا زوجتها هكذا بلا مهر يليق بي وبها.

قد تلوك سمعتها ألسنة الناس سيقولون: وهبها الراعي ليتستّر على البنت! زوجها للراعي لأنه لم يجد صهراً من أبناء الذوات!

- سمعتك على عيني ورأسي يا سيدي ولكن من أين المال!
- المال مني ومن السيدة! نعتبره سلفة على أجرك لبضع سنوات!
- ولماذا المتأخر؟ دين فوق دين!
- هذا لا يهم! نكتب مبلغاً رمزياً
- هذا كَرَم أخلاق منك ومن السيدة!

ولكن لم يكن من رأي السيدة أن يكون المتأخر رمزياً، كانت تريده غلاً في عنق الراعي ليعدّ إلى العشرة قبل أن يفكر في الطلاق.

ومع ذلك فقد رضيت بربح المعركة الأولى استعداداً للمعركة الثانية.

- جئنا نخطب جاريتكم إلى ولدكم الراعي، هي فتاة ذكية عاقلة وهو شاب خلوق أمين!

كان المتكلم أحد الفلاحين العجائز، جاء يتقدم وفداً من رجال القرية لخطبة الخادمة الشابة.

لم يكن بين الوفد نساء ولم تحضر السيدة هذه المشاورات.

الخطبة مهمة رجالية، رجال يتحدثون مع رجال، لذا اكتفت السيدة بأن تظل جالسة خلف باب نصف مغلق تستمع إلى الحديث ولا تشارك فيه.

- أهلاً بكم، البنت بنتكم والولد ولدكم، ولكن تسمحون لنا بمشاروة السيدة صاحبة البيت والعروس.
- هذا حق! ونرجو أَن يكون جوابكم خيراً.
- في هذه الأثناء كان الغلام يقدم الشاي فحاولوا الاعتذار عن شربِهِ.
- نشرب الشاي عندما توافق على طلبنا.

- تشربون الشاي وعسى أن يكون الجواب خيراً.

وألـحّ فـامتنعوا مـرة ومـرتين وأخيـراً تنـاولوا أكـواب الشـاي ثـم ارتشفوها على عجل ونهضوا وهم يرددون:

- نعود بعد أسبوع
- خير!

عاد الوفد بعد أسبوع واستؤنفت مباحثات الخطوبة:

- نعم الشاب خلوق أمين ولكنه فقير، وقد لا يستطيع أن يؤمن للفتاة الحياة اللائقة!

كلنا فقراء! الفقر ليس عيباً. من رضي عاش!

- والمهر؟!
- البركة في سيادتكم الذي يعيش في ظلكم لا يفتقر!
- أقدّم إليه البنت بلا مهر؟! هذا غير معقول!
- حاشا يا سيد! نحن لم نقل بلا مهر... سيادتكم تساعدون الراعي ببعض المال وهو يبيع الجاموسة أو يرهنها ثم يدفع الباقي أقساطاً من أجره السنوي الناس للناس والوعاء الكبير يتسع الوعاء الصغير!

سُرّ صاحب الدار في قلبه لأن الحل جاء من الوفد! من الخاطبين! سيظل الراعي مديناً له لعدة سنوات وهكذا تظل فرصة استعادة الفتاة ممكنة!

تمَّ كل ذلك دون أن تسأل الفتاة عن رأيها. الرأي للرجال!

هم المسؤولون وهم الأكثر حكمة والأرجح عقلاً، ما يراه الرجل بكفه لا تراه المرأة بعينيها!

أما السيدة فقد كانت تسمع الحديث فلا تفوتها منه كلمة، وهي تعرف جيداً أن زوجها لن يتخطّى الحدود التي اتفقت واياه عليها!

بعد بضعة أيام جاء وفد من الفلاحات يحمل بعض هدايا الخطوبة: سواراً من فضة، وعقداً من الخرز الشفّاف وثياباً وعطراً وبخوراً وأشياء صغيرة أخرى... وضعتها كبيرتهن على طاولة أمام السيدة الجالسة على كرسي من خشب الورد المحفور.

ظلت الفلاحات واقفات بانتظار إشارة جلوس من السيدة ولكنها اكتفت بأن قالت:

- وصلت الهدية!

وكان معنى ذلك إشارة انصراف، فانصرفن وهن يحنين رؤوسهن علامة استئذان!

انتشر خبر خطوبة الراعي على خادمة العمدة، فتسارع الوجهاء يستفسرون مندهشين! اتفقوا جميعاً على أن العمدة يتستّر على فضيحة ارتكبها ولكنهم لم يصارحوه وحاول بعضهم أن ينقل الخادمة إلى بيته أو إلى مكان يسهل الوصول إليه.

- لماذا يا عمدة، تزوج هذه الفتاة إلى راعٍ فقير؟ هذا ظلم!..

... لماذا لا نجد لها زوجاً موظّفاً يؤمن لها حياة مقبولة؟!

... هل انقطع الرجال حتى تزوج هذه الفتاة بهذا الشاب الفقير وتحرمها الحياة بين الناس؟!

كان العمدة يعرف ما تنطوي عليه هذه التساؤلات، هم يريدونها قريبة منهم وهو يريدها أقرب إليه، لهذا لم يحاول أن يدخل في نقاش تفصيلي بل ظل يجيب باقتضاب وحزم:

- وعدناه بها!

كان لابد من تسجيل العقد، عقد الزواج في المركز...

خشي العمدة أن يذهب بها إلى المركز وهو لا يزال يخاف عليها من أولئك الذين هم فوق! لذلك قرر أن يحضر الكاتب بالعدل إلى بيته!

وجاء الكاتب، كهل يلبس نظارتين كأنهما عقبا زجاجتين ويرتدي بزة قديمة واسعة سوداء نسل بعضها والتمعت فوق بعضها بقع الزيت والشحم.

جلس بعد أن انحنى مراراً ثم فتح دفتره الكبير وبدأ يسأل ويسجل:

- العريس؟!

هذا هو العريس وأشار السيد إلى الفتى الراعي الذي كان يقف مطرقاً باستحياء كأنه مذنب أمام محقق.

- الاسم الكامل
- اسم الأب
- اسم الأم

تاريخ ومحل الولادة

رقم المسكن

متأهل أو أعزب

متعلم أو أمي

الدين والمذهب الخ...

كان الراعي يجيب بنفسه أحياناً وينيب عنه سيده بالإجابة حيناً آخر.

سجل الكاتب ما أملاه عليه صاحب البيت ثم التفت إلى الراعي يسأله:

- وهل قبلت بدفع مهر قدره مئة قطعة فضية وبمؤخر قدره عشر قطع فضية تدفعها عند الطلاق أو الفراق.

التفت الراعي إلى سيده وهو يغص بريقه فراح يتساءل بينه وبين نفسه:

- مئة قطعة فضية؟ عبودية عشر سنوات على الأقل!..

ولكن... من أجلها كل شيء يهون!..

وأخيراً استفاق من دهشته وردد بصوت مرتجف:

- نعم قبلت!

واستدعيت الفتاة فجاءت شجاعة رصينة

وبدأ سيل الأسئلة ينصب عليها.

كانت قد استعدت على بعضها منذ وقت بعيد. اخترعت لنفسها اسماً ولأبيها اسماً ولأمها اسماً ولكن بعض الأسئلة الغريبة المفاجئة جعلتها تتردد وتتلعثم مرة بعد مرة، وكان على سيدها أن يشجعها وان يخترع لها بدوره بعض الأسماء والتواريخ.

- أين هويتها؟ سأل الكاتب بالعدل
- عندما تحدث الكوارث ويهرب الناس من أكواخهم لا يفكرون بهوياتهم، الروح أغلى من الهوية، أجاب السيد صاحب البيت

ماذا أكتب إذن؟

- اكتب ولدت في قرية الزعفران قبل عشرين سنة
- يعني!
- احسب واكتب
- رقم المسكن؟
- اكتب 35، عازبة، أمية
- الدين والمذهب؟
- على دين زوجها؟

انكب الكاتب العدل يسجل ثم رفع رأسه وخاطب صاحب البيت بلهجة جدية ونبرات واضحة:

- هل ازوج فلاناً إلى فلانة وفلانة إلى فلان؟!
- نعم
- تفضل وقع!
- تقدم العمدة فرسم شكلاً يشبه فزّاعة الطيور!

وتقدم الراعي فأمسك الكاتب بيده ثم غطى إبهام العريس بالحبر وضغط بها في أسفل الصفحة بحركة آلية سريعة.

وأمسك بيد الفتاة فوجدها ناعمة كالحرير!

لم يتح له من قبل أن يقبض على يد حريرية، فالأيدي الناعمة كانت توقع بنفسها أما أيدي البنات الفلاحات فقد كانت خشنة أو مجرّحة.

كيف يوسخ هذه الابهام الرخصة بالحبر؟! ما العمل؟!

تردد قليلاً قبل أن يقدم ثم نظر إلى السيد كأنما هو يستأذنه وما زالت يده تشد برفق على يد الفتاة!

القانون قانون!

بدأ يغطي الإبهام بالحبر في رفق ونعومة ثم أنزل اليد برفق ونعومة فوق أسفل الصفحة ثم شد عليها بشيء من القوة كادت تزعج الفتاة!

أخيراً أفلت اليد وقد احمرت أذناه قليلاً وبدت دقات قلبه أسرع خفقاناً.

- مبروك!

ثم بدأ يقفل سجله بعناية ويرتب هندامه انتظاراً للمكافأة.

وعندما أخذها دسها في جيبه دون أن يعدها وراح يدس في جيبه الثانية منديلاً يبدو أنه محشو ببعض الحلوى!

في المساء كان الكاهن يدق باب العمدة بعكازه الأعوج الكثير العقد.

أسرع الغلام يقبّل يده الممدودة، أما العمدة فقد حياه تحية مقتضبة ثم سار أمامه نحو السقيفة.

- أهلاً بك يا معلم! تشريفك بركة!
- جئت أعاتب يا عمدة!
- تعاتب؟!... خير!..
- تخطب الفتاة ولا تدعونا؟
- هذه أشياء شكلية، يا معلم، لا يستحق العتاب.
- لا يا عمدة هذه أشياء أساسية، الزواج رباط مقدّس. الزواج مسؤولية روحية، مسؤولية المعبد يا عمدة! من لا يدخل بوابة المعبد لا يدخل بوابة السماء!
- أنتم في الفكر يا معلم، حقك علي!

في هذه الأثناء دخلت السيدة، فانحنت من بعيد ثلاثاً وهي تضم يديها أمام صدرها حتى كادت تلامس الأرض.

- تفضلي اجلسي، قال الكاهن وهو يدق بعكازه الأرض في حركة بطيئة.

جلست السيدة في ركن قصي من الغرفة مطرقة ساكنة كأنها ملاك في ثياب نسائية.

وجاءت الخادمة تحمل الشاي وفي ضوء الفانوس الأحمر الكبير المعلّق في قبة السقيفة بدا وجهها أكثر توردا وقامتها أكثر سحراً.

تململ الكاهن في مقعده وراح يتمتم بصوت مرتفع:

- كيف ترضى بأن تكون هذه الفتاة زوجة غير شرعية يا عمدة؟
- من قال ذلك؟!
- السماء تقول ذلك: من لا تباركه السماء لا يكون مباركاً.. واستأنف كلامه وهو لا يزال يدق أرض السقيفة بعكازه.
- والأولاد؟! يكونون أولاد غير شرعيين! من المسؤول عن عارهم هذا يا عمدة؟!

كان الكاهن يعرف جيداً موقف العمدة الحالي من المعبد قبل أن يصبح عمدة، عندما كان أجيراً يشقى!

لا يذكر أنه رآه في المعبد إلا مرة أو مرتين!

ولا يذكر أنه حمل إلى المعبد نذراً أو حزمة بخور!

وهو يذكر جيداً أنه كان لا يحيي كهنة المعبد، وإذا حياهم كانت تحية باردة خاطفة.

وهو يذكر جيداً النكات اللاذعة التي كان يرددها عن المعابد وعن الكهنة، نكات بعضها من "تلحينه وعزفه" وبعضها متداول.

ولكنه كان يزيدها "ملحاً" وفلفلاً" حتى تكون أشد "حرافة".

أما الآن وقد أصبح عمدة فهل يحاول أن يظل مستهتراً بالطقوس مستخفاً بأربابها!؟

لقد حاول عمداً، في مراسم الخطبة أن يتجاهل كهنة المعبد، أما الآن وقد جاء الكاهن بنفسه يحتج، وكأنه يهدد، فقد وجد العمدة نفسه عاجزاً عن الاستمرار في التحدّي وبدأ يراوغ.

عندئذ أنجدته زوجته بصوتها الخفيض الناعم:

- لا تؤاخذنا يا معلم، دوركم أنتم في الحفلة الكبرى، حفلة العرس، الخطبة كانت عملية مستعجلة تفاجأنا بها ولم يخطر في بالنا أن تتم في هذه السرعة كل الظروف كانت تضطرنا إلى أن نسلق هذه الخطبة سلقاً.
- نحن يا سيدة مسؤولون عن الأرواح من المهد إلى اللحد.

المولود نحن نباركه. والمريض نحن نصلي من أجله، والخاطئ نحن نطلب له الغفران والزواج نحن نثبته أمام السماء، والموتى نحن نقيم لهم القداس ليعبروا إلى شاطئ الأمان بسلام حيث ينعمون بحياة خالدة خالية من الأحزان والهموم أما العصاة المستخفون بالسماء وخدمة السماء فإن عقابهم في هذه الدنيا والدنيا الثانية عقاب عسير!

توقف الكاهن قليلاً عن الكلام ثم التفت نحو العمدة وتابع حديثه بلهجة أشد وقعاً:

أتـذكر يـا عمـدة مـاذا حـل بسـلفك عنـدما أهمـل الطقـوس وضـبط الـنفس؟ كانـت لهجتـه هـذه المـرة لهجـة المتحـدي فهـو يعـرف جيداً الوضـع الـذي وصـل إليـه العمـدة الجديـد، فلـم يعـد يهابه مثل تهيّبه منه في الأيام الأولى في زعامة القرية.

- نحـن نطلـب رضـاك يـا معلـم! لا حاجـة لهـذه الحـدة، غلطـة ونصلحها.

تفضل اشرب الشاي!

بعـد هـذا الاعتـراف والاعتـذار تهلـل وجـه الكـاهن وبـدأت لهجتـه تلين ودقـات عكـازه تهـدأ تـدريجياً، لـم تمـض برهـة حتـى عـادت إليـه ضـحكته العاليـة تتـراقص معهـا لحيتـه الخفيفـة وشارباه المتهدلان!

وهنا! ارتفع صوت السيدة بشيء من الدلال والثقة بالنفس:

- تتعشى معنا وتبيت الليلة عندنا، في بيتك يا معلم!

أرسل الكاهن ضحكة خاطفة وأردف قائلاً:

- هل يوافق العمدة!؟

ارتبك العمدة قليلاً وأجاب بصوت متهدج:

- البيت بيتك يا معلم! لا تؤاخذنا إن لم نكن مستعدين تماماً!

المثل يقول: ضيف المسا ما له عشا!... النبيذ يا بنت!

يبدو أنني نشفت ريقك هذا المساء يا معلم! لا تؤاخذنا!

عندما عادت النّسَاجة إلى غرفتها كانت مئات الأفكار تتضارب وتتصارع في رأسها!

تمددت في سريرها تفكر في الأحداث التي تدور حولها والأشخاص الذين تعاقبوا على مسرح الأيام القليلة الماضية!

وامتد بها التفكير وتشعّب وظل نظرها معلقاً في سقف الغرفة يراقب تراقص ظلال سراجها الخافت:

- ما لك لم تنامي!؟

كان الصوت صوت الخادمة الكهلة

- تفضلي يا عمة!

كانت النّسَاجة قد كسبت قلب عمتها الخادمة منذ الأسبوع الأول فقد وجدت في الخادمة الكهلة عيناً يقظة وقلباً شفوقاً وعقلاً حسن التدبير ووجدت العجوز في الفتاة الجديدة نموذجاً لم تعهد مثله في الفتيات اللواتي تعاقبن على خدمة هذا البيت

خلال عشرات السنين!... بنت جميلة ومتواضعة، صغيرة السن كبيرة العقل، نشيطة صبورة، لا تثرثر ولا تفرفر! ذكية الفؤاد ماهرة اليد، لهذا أَنِست إليها العمة وبدأت الهوة بينهما تضيق وتضيق حتى أحستا بأنهما أختان التقتا بعد فراق طويل.

- ما لك لم تنامي بعد؟ كررت العمة سؤالها
- ربما شربت بعض الشاي فأقلقني
- هذا لا يكفي، تكلمي، قولي، ألا تثقين بي؟!
- كل الثقة يا عمة... ولكن!...
- اسمعي يا بنت! الأهالي يسمونني "العمة البكماء" لأنهم يرغبون في أن يسمعوا أخبار هذا البيت وأسراره، أنا خادمة عجوز، لا أهل لي ولا ولد، غريبة، غصن مقطوع من شجرة، لهذا فضّلت أن أظل بكماء حتى لا أرمى في الشارع. خادمة، خادمة لا أكثر!
- ولماذا لا أكون أنا بكماء أيضاً؟!
- هذا مفيد لك أيضاً كخادمة ولكنك سوف تصبحين صاحبة بيت.

وعندئذ يستطيع لسانك أن يتحرر، لا بأس أن تظلي هنا بكماء ولكن معي أنا.. لا.. قولي ما بك؛ لعلي أساعدك! نطفيء السراج أولاً. هذا السيد كثير الشكوك!

نفخت العجوز السراج فانطفأ تاركاً وراءه سحابه صغيرة من دخان ورائحة شحم محترق!

اندست العجوز بجانب الفتاة في السرير وراحت تكرر سؤالها:

- ما لك!؟

وهي تمسح على شعر الفتاة الحريري الطويل كما تمسح الأم على شعر طفلة مدللة:

- هذه التقاليد، لا أعرف ماذا أقول عنها!
- معقدة! أليس كذلك؟!
- لماذا يقبل خطيبي بأن يضع هذا الدين الثقيل على عنقه؟!
- أنت مثلي لا أهل لك! غصن مقطوع من شجرة، أنا غصن جاف أما أنت فما زلت غصناً طرياً، وليي ووليك هو

العمدة، أنت جارية في بيته يستطيع أن يبيعك أو يهبك لأي إنسان، وأنا كذلك!

البنت ما زالت يا بنتي، متاعاً يباع ويشرى بيعاً وشراء مكشوفاً، أحياناً، وبيعاً وشراء مقنّعاً أحياناً أخرى! العمدة يحاول أن يبقيك هنا في البيت، لغرض في نفسه، ولكنه عاجز أمام إصرار السيدة على إبعادك من البيت! اتفقا على حل وسط، لا يموت الذئب ولا تفنى الغنم! تتزوجين فتخرجين من البيت وتظلين، مع ذلك ملحقة بالبيت!

- ولماذا لا نبتعد أنا وزوجي عن هذا البيت... نرحل!
- يا بنتي الرحيل لا يحل المشكلة! أنّى تتوجهين تجدي الغراب أسود!
- وهذا الكاهن الذي جاء يهدد بزواج غير شرعي وأولاد غير شرعيين؟ بنقمة السماء وغضبة خدام السماء؟!
- الكهانة يا بنتي سلطة ومهنة، مصدر سلطان وجاه ومورد عيش ورفاه، في القديم كان الملك كاهناً وملكاً في الوقت ذاته ولكن الملك لم يستطع أن يظل ممثلاً للسماء والأرض

فـي وقـت واحـد، التناقضـات بـين السـماء والأرض موجـودة والتناقضـات بـين الشـؤون الواقعيـة للمملكـة وبـين الطقـوس والتعاليم الدينية لم تحل، لهذا اضطر الملك إلى أن يتنازل عن بعض صلاحياته للكهنة، أنا أسوس الشعب بالتشريعات التـي أسـنها وأنـتم تسوسـون الشـعب بالتشـريعات التـي أوحـت بهـا السـماء، سـلطتي جـزء مـن سـلطتكم وسـلطتكم جـزء من سلطتي!..

- من علّمك هذا يا عمتي؟!
- الحياة علمتني هذا يا بنتي! السيد السابق لهذا البيت كان يستعين بالمعبد لتَمرير مشروعاته، وكان المعبد يستعين بالسيد السابق لإغنائه بالعقارات والنذور، حك لي أحك لك!
- والضحية هم دائماً الفقراء!
- غالباً يا بنتي وليس دائماً!
- ولكن! لماذا لم يعترف الكاهن بسجلات الكاتب بالعدل! أليس معنى ذلك أنه لا يعترف بالسلطة التي يمثلها الكاتب بالعدل؟!

- الكاهن يحتج لأنه يخشى أن تتكرر هذه الحادثة فتسقط سلطة من سلطات المعبد وقد يتبعها سقوط سلطات أخرى وهكذا يستعيد القصر سلطته الكاملة بعد أن شاركه فيها المعبد خلال العصور... القصر والمعبد شريكان ولكنهما شريكان متنافسان، يتواطآن ويتنازعان، كل منهما يدعم الآخر وكل منهما يحاول أن يقوض الآخر!.. القصر يعتبر الزواج الذي يسجله الكاتب بالعدل زواجاً شرعياً والأولاد أولاد شرعيين ولكن الأهالي ما زالوا يعترفون بهذا الحق، حق الشرعية، للمعبد لا للقصر... تغيير أفكارهم ليس أمراً سهلاً!
- حاول العمدة الجديد أن يتجاهل المعبد ولكن المعبد تحداه واضطره إلى الانحناء فالتراجع، وكذلك الكاهن لم يستمر في التحدي فراح يلطف الجو المتوتر حتى صفا أو حتى بدا صافياً.
- يبدو أن جماهير الشعب تتفرج على المعركة الدائرة ولا تساهم فيها؟!

- الجماهير، غالباً، مستغلَّة، مظلومة، أقنعهم المعبد بأنهم لم يولدوا على هذه الأرض إلا للشقاء ولكنه شقاء مؤقت، عشرات السنين، تعقبها حياة خالدة كلها سعادة إذا هم آمنوا بالمعبد وآلهة المعبد، الحل يبدو بسيطاً، ومفعماً بالرجاء: صبرٌ قليل ومكافأة عظيمة!

هذه الأفكار يشجعها القصر، شعبٌ أسلسُ قياداً، وأكثرُ احتمالاً ولكن القصر يخشى أن ينهار إذا استسلم الشعب كلياً إلى المعبد، لهذا يظل القصر محافظاً على مؤسساته مبدعاً مؤسسات جديدة قادرة على تدعيمه وحمايته من شركائه ومن معارضيه.

الكاتب بالعدل هو أحد ممثلي سلطته. يحاول عن طريقه تحويل بعض صلاحيات المعبد إلى سلطاته المدنية تحويلاً سلمياً ناعماً!...

هنا صاح الديك، فانتبهت العجوز وانسحبت من الفراش وهي تتمتم:

- نامي يا بنتي! لا تحاولي أن تحلي مشاكل الأرض في ليلة واحدة! تصبحين على خير!

عبثاً حاولت النّسَاجة أن تغمض عينيها فقد ظلت صور الأرض والسماء والقصر والمعبد المتلاحقة أمام عينيها تؤرقها وتقلقها!

هي بنت السماء!

تعرف السماء فضاء خلف فضاء!

أنهارها مجرات من جمر لاهب

لا ظل فيها إلا ظل الأرض ينسحب على القمر فيرتجف القمر من البرد والهلع!

لا طير، لا فراشة، لا نسمة، لا غصن أخضر!

نجوم لاهبة خلف نجوم لاهبة، وكواكب دوارة متلاحقة رتيبة خلف كواكب دوارة متلاحقة رتيبة!

أما الأرض!

ظلال وألحان وأنسام وألوان وحياة حية متحرّكة!

حياة حية متحركة ولكنها معقّدة

فمن الذي عقّدها!؟

يبدو أن بعض الناس قد عقدوا الحياة فوق هذه الأرض ليأكلوا ثماراً لم يغرسوها ويرفلوا بثياب لم ينسجوها، وهذا نموذج منهم.

العمدة الجديد الثائر بالأمس على الظلم والمشارك اليوم في الظلم، وهذا الكاهن لعله نموذج آخر رأسماله سبحة وطيلسان يُلاقى بالتحية والترحاب وتنحني أمامه الرقاب، يفتح أمام الناس أبواب الجنة فيفتحون أمامه أبواب بيوتهم ومكنونات صدورهم!...

الجماهير، حتى الآن، رفضت التخلي عن آمالها اللذيذة في عالم السعادة الأبدية، ولماذا ينحر الناس آمالهم!؟

رفضوا الاعتراف بعظمة هذه الأرض وقدرتها على إسعاد أبنائها... الاعترافُ بقدرة الأرض على إسعاد أبنائها والنضال من أجل تحقيق هذه السعادة مهمة صعبة أما الاستسلام إلى الآمال فهو الحل الأسهل، لهذا قبل أكثرهم بالحل الأسهل والأكثر إغراء...

صاح الديك للمرة الثانية ولكن النّسَاجة كانت تغفو وتحلم.

فلم توقظها إلا أنامل العمة تربت على خدها بلطف وحنان!

- انهضي يا بنتي!.. الأجير الذي لا يوقظه صياح الديك توقظه خيزرانة السيد!

في باحة المعبد حيث يعبق البخور وتتراكم باقات الزهور بدأت مراسم الزفاف.

ترأس الكاهن الاحتفال بطيلسانه الحريري المزركش وقبعته العالية الشبيهة بتيجان الملوك وسبحته المرجانية المتدلية فوق كرشه المنتفخ.

وبسمته العريضة، العريضة جداً هذا اليوم!

كان يساعده عدد من تلاميذه بثياب بنية فضفاضة وأحزمة زرقاء.

عن يمين الكاهن وقف العمدة بثوب حريري أسود مشقوق الجانبين وقبعة ضيقة زرقاء وشفتين مزمومتين كلما مطهما في محاولة للابتسام بدت ابتسامته تكشيرة خاطفة.

عن يسار الكاهن وقفت السيدة زوجة العمدة وقد تزاحمت عن يسارها وخلفها نساء القرية وبناتها، كانت تحاول أن تبدو وقورة متهيبة ولكن البريق المتألق في عينيها كان شبيهاً بعيني قائد عائد من معركة منتصرة.

أمام الكاهن وقف العروسان الفتى بثياب جديدة وحذاء لماع أضافها السيد إلى ديون أجيره السابقة، والعروس بثوب وردي هدية من سيدتها زادها فتنة وتألّقاً.

رفع الكاهن يديه نحو السماء وبدا يتلو أدعيته:

"باركي يا سماء للراعي على عروسه وللعروس على الراعي! امنحيهما السعادة والبركة ليكونا وأولادهما وأحفادهما أبناء بررة للهيكل المقدس!.."

راح يدمدم حيناً ويتمتم أحياناً، وحده، أو بمرافقة جوقة من تلاميذه الصغار وهو يرفع يده اليمنى تارة فوق رأس العريس وطوراً فوق رأس العروس وأخيراً قدم لهما كأساً من الخمر رشف منها العريس رشفة والعروس رشفة وأعاد الكأس لم تنقص إلا قليلاً!

في هذه الأثناء كانت المائدة ترتب في بيت شيخ الفلاحين وليّ أمر العريس، أطباق تزحم أطباقاً وكؤوس تزحم كؤوساً في جو عابق برائحة الشواء والزيت والفحم... أضاف السيد تكاليفها إلى ديون أجيره!..

كان المدعوون قلائل لأن السيد لم يشأ أن يرهق أجيره بوليمة أفخم... خلع الكاهن طيلسانه المزركش وقبعته وشمر عن ساعديه وقد وقف خلفه تلاميذه يخدمونه، وتحلق المدعوون الآخرون حول المائدة يطعمون ويشربون ويتضاحكون، في حين ظل العمدة مزموم الشفتين يحاول أن يضحك فيغص باللقمة ويحاول أن يبتسم فيرتسم على شفتيه طيف ابتسامة مصطنعة عابرة!..

في هذه الأثناء كان شباب القرية وشاباتها يتوافدون وهم يحملون الفوانيس الملونة والدفوف وباقات الزهور ليصحبوا العروسين إلى كوخ الراعي العريس!

أخيراً رفعت المائدة وبدأت نقرات الدفوف وألحان الشبابة والمزمار وراح بعض الشباب والشابات يرقصون على أنغامها.

وانطلقت حنجرة واحدة من الفلاحات بزغاريد متلاحقة وهتافات متقطعة:

شوباش للعمدة!

شوباش لزوجة العمدة

العمر الطويل للعمدة!

العمر الطويل لزوجة العمدة...

شوباش للعريس...

شوباش للعروس...

عندئذ وقف الكاهن ورفع يديه كليهما نحو السماء وهو يتمتم:

ليكن هذا العرس مباركاً بحق السماء...

ثم جلس.

وتقدم العمدة فوضع في يد العروس ثلاث قطع فضية

وتقدمت السيدة فوضعت قطعتين

واستمرت الزغاريد

وتقدم الشباب يضعون في يد المرأة المزغردة بعض القطع النحاسية أو الفضية هدية للعروس، وأخيراً ربطت هذه الحصيلة في منديل قدمته السيدة إلى العروس فدسّته في صدرها بابتسامة حَييّة!

قبّل العريس يد العمدة وقبلت العروس يد السيدة

وعادت المرأة تهتف وتزغرد...

"تسمح لنا بالعروس يا سيدي العمدة

الفضل لك يا سيدي العمدة..."

أمام البوابة كانت الجاموسة تقف وهي تحمل على ظهرها خرجاً فيه بعض الصرر والمؤونة ونولاً قديماً كانت الفتاة قد طلبت من العمة أن تهديها مثله في يوم عرسها.

إلى جانب الجاموسة وقفت اتان غبراء فوق ظهرها شبه سرج لتحمل العروسة. كان السيد قد حاول أن يقدم للعروس فرساً أصيلاً تركبها ولكن السيدة عارضت بشدة

- لا تطمع الخدم فينا يا عمدة! الأصايل للأصايل!...

بدأ الموكب يستعد لانطلاق.

العروس فوق اتانها الغبراء في المقدمة وقد غطت العمة وجهها بمنديل حريري شفاف بعد أن قبّلتها وهي تدس في صدرها خفية صرة من النقود وتمسح باليد الأخرى دمعة تدحرجت فوق خدها وهي تردد:

- مبروك يا حبيبتي!...

العريس يمسك بزمام الدابة وقد بدا عليه الارتباك، بعضه بسبب هذا الجو الحماسي وبعضه بسبب ذلك الحذاء الذي لم يعتد على مثله.

خلف العروس اصطفت حاملات الدفوف والفتيات المرافقات.

خلفهن وقف عازفا الشبابة والمزمار وقفة الاستعداد

في المؤخرة اصطف الشباب تتبعهم الجاموسة يقودها طفل كبير!

وهكذا انطلق الموكب بالزغاريد ونقر الدفوف والأغاني بينما اصطف على جانبي طريقه كل أهالي القرية يلوحون للموكب بقلوب مفعمة بالفرح وعيون مخضلّة بالدموع.

كانت العروس تمسح دموعها بين الحين والحين وهي تحس كأنها عصفور أفلت من قفص ذهبي وعاد إلى غابته الواسعة ولكنه ما زال يحمل في رجله خيطاً شائكاً ثخيناً.

في الأفق البعيد كانت بعض السحب الداكنة تتجمع وصوت رعد خافت يسمع وومضات برق تلمع بين الحين والحين.

خشيت النّسَاجة أن يكون ذلك إنذاراً من السماء من جهة، ومن جهة ثانية خيل إليها أن السماء تبارك وتشارك، وهكذا راحت تتنازعها عوامل الرهبة الخفيفة والطمأنينة الحذرة ولكنها قررت أخيراً أن لا تُعير ذلك أي اهتمام:

- ما للسماء للسماء وما للأرض للأرض! يكفي أنها تشعر بسعادة بلا حدود!

أمام الكوخ توقف الموكب حيث دارت حلقات الرقص رشيقة طليقة مفعمة بالمرح!

ومع الغروب بدأ الشباب يشعلون فوانيسهم الملونة استعداداً للعودة.

ومع المساء كانت مشاعلهم تتحَدر نحو الوادي متلألئة متمايلة وقد شبك الشباب أيديهم بأيدي الصبايا وهم يرددون معاً الأغاني الجبلية العذبة، فترن أصداؤها في الأودية والسفوح رنين النواقيس الفضية!

فوق التلة ظل فانوس كبير أحمر معلقاً في مدخل الكوخ يتمايل طروباً مع النسيم ويغمز بين حين وحين بمرح ماكر!

كادت العروس تصرخ: "خذوني معكم" وهي ترى الشبان والشابات ينحدرون تباعاً نحو الوادي ويخلفونها وراءهم!

أحست بالخوف فجلست على طرف السرير تدفن رأسها بيديها وتكاد تبكي.

ولكن لماذا الخوف؟ وممن تخافين؟ الشبان رقصوا لك بفرح وحماسة، الأهالي ابتسموا لك ولوحوا بأيديهم مباركين. السلطة والكاهن والعمة وربة البيت كلهم سمحوا لك أن تسكني مع الراعي في كوخ واحد وأن تنامي معه في فراش واحد!

عندئذ بدأت خفقات قلبها تهدأ، ولكنها ما عتمت أن تسارعت مضطربة محمومة عندما أطفأ الراعي السراج فعضت

على إصبعها وهي تحاول أن تكتم صرخة خوف كادت تفلت من بين شفتيها.

وعندما قرب فمه من خدها وأحست بلهيب أنفاسه الناعمة الدافئة تغمر وجهها ازدادت ارتباكاً واستحياء...

في الصباح نهضت متثاقلة وهي تفرك عينيها بشيء من الذهول وكأنها تستفيق من حلم غريب.

كان العريس قد هيأ كوبين من لبن الجاموسة وبعض هدايا الفطير.

لم تحس برغبة في طعام أو شراب ولكن الراعي راح يشجّعها باسماً فلم تستطع أن ترفض اللقيمات المتتابعة التي كان يقدمها إليها مشفوعة ببعض العبارات الحلوة.

لا راحة للأجير، وخاصة الأجير الغارق في الديون، لهذا وثب العريس على قدميه مودعاً بعد أن طبع قبلة خاطفة على جبين عروسه الذاهلة ثم ساق قطيعه نحو المرعى وهو يعزف ألحاناً بدت هذه المرة شجية طروبة متفائلة.

نهضت الفتاة بدورها وراحت تنقل إلى خارج الكوخ ما تستطيع نقله من موجودات.

يجب أن ترتب بيتها ترتيباً جديداً

كنست الأرض مرة ومرتين، عسفت السقف والجدران من شباك العناكب والغبار المتراكم بخرقة ربطتها في رأس قصبة، علقت على جوانب الكوخ الهدايا التي حملتها، جراباً مزخرفاً لزوادة الراعي، مكحلة مغلفة بالخرز الملون للعروس، مقلاة نحاسية صغيرة لمّاعة، باقة من الزهور الحريرية، نول العمة "البكماء"، منشفة، وزجاجة عطور...

فرشت الأرض بحصير جديد، غسلت ما يحتاج إلى غسيل وأصلحت ما يحتاج إلى إصلاح، وطرحت فوق السرير ملاءة حريرية مسكاوية هدية أخرى من السيدة زوجة العمدة، أخرجت بعض الجرار والحبوب لتشميسها، نظفت ورتبت صندوق الثياب ترتيباً جديداً... راحت تعمل بحماسة ورشاقة كأنها نحلة في عنفوان نشاطها.

أصلحت الموقد ثم أضرمت فيه النار تهيئ عشاء بسيطاً وشهياً لم تنس حتى السراج أضافت إليه الزيت وأصلحت فتيلته

ألقت نظرة على سياج الكوخ ورمّمت بعض ثغراته

ومع الغروب عندما عاد الراعي بقطيعه نحو كوخه أحس، ولأول مرة، بأنه رجل صاحب بيت ولم يعد أجيراً منبوذاً.

ومع الغروب عندما بدأت العروس تساعد زوجها على خلع ملابس العمل وتقدم إليه الحساء الساخن أحست بأنها امرأة صاحبة بيت ولم تعد جارية صاغرة.

وفي المساء عندما بدأت النجوم تشرق تباعاً وبدأ القارب الفضي رحلته الحالمة في أجواء السماء الصافية أخذت النّسَاجة ترنو إليها ببسمة ذات ألف مغزى:

- أحن إليكم يا أحبائي ولكني لا أحسدكم.

إنني هنا سعيدة، سعيدة، سعيدة!

... الذّين همٌّ في الليل وذل في النهار، يجب أن أساعد زوجي على وفاء ديونه أنا نساجة ماهرة، هذا النول... وهذه الخيوط!... أعرف أذواق أهل السماء ولكني لا أعرف تماماً

أذواق أهل الأرض، أجرب، أنسج لوحة "العروسة": فتاة تركب فوق أتان غبراء، تقف خلفها ثلاث فتيات واحدة تغني وواحدة تنقر على الدف وثالثة ترقص.

وهكذا بدأت النّسَاجة تنسج لوحتها برشاقة ومهارة كلما سمحت لها الفرصة بذلك، وكان الراعي ينظر إليها بمزيج من الدهشة والزهو.

كانت لوحة بسيطة وجميلة. علقتها على الجدار وراحت تنظر إليها فأعجبتها.

عليها إذن أن تحملها إلى المركز لبيعها، في القرية لا أحد يملك شيئاً من المال إلا العمدة، والعمدة بدأ يفلس تدريجياً وأخذ يبيع القطعة من أملاكه بعد القطعة.

- ما رأيك لو حملت أنا هذه القطعة لبيعها في المركز!؟ قال الراعي وكان هو الآخر يخاف عليها من المركز حيث الوجهاء والمتسلّطون!..
- لا بأس، وأنا أنوب عنك في حراسة القطيع!

لفّت النّسَاجة لوحتها بعناية في قطعة حريرية هدية من إحدى جاراتها الأجيرات ثم سلمتها إلى الزوج وهي تشاوره:

- كم تقدر ثمنها؟!
- لا أعرف. سنرى كم يدفعون!
- أظن أنهم سيدفعون ثمناً معقولاً، عشر قطع فضية على الأقل!

حملت العروس إلى زوجها الحذاء اللماع الجديد ولكن الراعي أشار بيده إشارة معارضة وهو يضحك:

- هذا... لا...

ثم انطلق نحو المركز البعيد وهو يلوّح بيده مودعاً وظل كلبه يتبعه حتى فم الوادي.

في سوق المركز عرض الراعي قطعته على أول دكان صادفه. تأمل صاحب الدكان القطعة ثم رفع أصابعه الثلاثة.

لف الراعي القطعة وانتقل إلى دكان آخر

تأملها صاحب الدكان الثاني ثم مطّ شفتيه كأنه يقول:

- لا حاجة لي بها!

التاجر الثالث راح يتأملها بعناية وهو يرفع نظارتيه عن عينيه ثم يثبتهما، يمرر يده على النسيج حيناً ويقلّبه حيناً آخر.

- كم تريد؟!
- كم تدفع؟!

رفع التاجر أصابعه الخمس

وعندما بدأ الراعي يلف قطعته لينتقل إلى دكان آخر راح التاجر يحدق فيه من تحت نظارتيه ثم تمتم بصوت منخفض:

- من أين لك هذه القطعة يا شاب؟
- هذه شغل البيت!
- أظن أنها...

وأشار بيده إشارة ريبة ثم استطرد قائلاً:

- ستة!

لم يلتفت الراعي إليه بل راح يتابع لف قطعته بعناية، وعندما هم بالخروج هتف التاجر عالياً وبصوت مبحوح:

- امسك حرامي!

حرامي... حرامي...

تجمهر الناس حول الراعي يتزاحمون، عندما رأوه يشد بحرص على قطعة النسيج الملفوفة بالحرير راح بعضهم يردد: "حرامي!.."

في حين ظل أكثرهم يصدقون ولا يصدقون!

تسارع بعض رجال الشرطة وهم يلوحون بهراواتهم الضخمة، تفرسوا في قطعة النسيج ثم تفرّسوا بالفتى الذاهل المشدوه:

- من أين لك هذا؟!
- هذا شغل زوجتي!
- وأنت ما عملك؟
- أنا راعي بقر!...

عندئذ تضاحك رجال الشرطة ساخرين وشاركهم الجمهور ضحكاتهم.

- هذه الأنامل ليست أنامل راعية بقر... اسحبوه!

في المخفر بدأ التحقيق بالعنف حيناً والاستدراج حيناً:

- من يعرفك هنا في المركز؟
- أنا راع أعيش في الجبال ولا معارف لي في المركز.

- من معلمك؟
- معلمي عمدة قرية الطواحين!
- تبقى هنا حتى نسأل معلمك، الليلة تبيت في "بيت خالتك!" وغداً يحضر العمدة ونسأله.
- بيت خالتي؟! ليس لي خالة ولا عمة في كل هذه المنطقة.

قهقه الشرطي ملء فمه:

- بيت خالتك يعني المخفر يا...

بعد الظهر بدأت النّسَاجة تتطلع نحو فم الوادي فقد يبرز بين لحظة وأخرى.

قبيل الغروب بدأت تحدق بقلق...

ومع المساء ازدادت قلقاً وهي تنصت حيناً علها تسمع أغانيه العذبة أو تحدق في الظلام الشفاف علها تبصر شبحه يصعد التلة.

أحست بالبرد فوضعت شال الصوف على كتفيها وظلت تنتظر أمام الباب.

انتظرت طويلاً طويلاً بقلق وترقب وأخيراً عادت إلى الكوخ فأغلقت الباب خلفها واستسلمت لبكاء مرير!

كانت أخواتها النجوم ترنو إليها من الطاقة الصغيرة بشيء من الشماتة:

- أنت سعيدة، سعيدة، سعيدة؟! وهذه الدموع، وهذا الشعر المشعث؟ وهذا الفراش الخالي؟!..

مع الفجر كانت النّسَاجة تنطلق نحو المركز تتدثر بمعطفها الثقيل يتبعها كلبها الضخم!

ما كادت تصل فم الوادي حتى أحست بأن قدمها تكاد تخذلها وأن ريقها قد أصبح مراً وأنها تكاد تتقيأ!

هل هي مريضة!؟

- لا، ربما لأنها لم تفطر!

وأحست بحركة ناعمة بين أحشائها.

تلمّست فشعرت بشيء يتحرك!

جنين!.. إذن هي حامل!

أحست بالعرق يتصبب من جبينها وبشبه دوار يغلف عينيها بسحابة داكنة...

جلست تستريح وقد تمدد تحت قدميها كلبها اللاهث ثم راحت تمرر يدها من جديد حيث الحركة الناعمة.

ابتسمت بحنان وسقطت دمعة على يدها فمسحتها بطرف كمها، ثم استأنفت سيرها ببطء وحذر هذه المرة!

عندما وصلت المركز كان السوق يعج بالحركة.

سألت عن زوجها الراعي الذي جاء يبيع قطعة من نسيج:

- في المخفر!
- وأين المخفر؟!

تبرع شاب صغير بمرافقتها إلى المخفر

- أين زوجي؟!
- من أنت؟!
- أنا زوجة الراعي
- الحرامي!...

- حرامي!؟ كادت تصعق! كادت تجن!..
- يدّعي أن هذا النسيج شغلك!؟
- نعم شغلي!

تفـرّس فيهـا حـارس السـجن لحظـة ثـم تمـتم بينـه وبين نفسه:

- هـي جميلـة حقاً!.. ولكـن أكثـر السـارقات جميلات!.. التـي تسلب القلوب يهون عليها أن تسرق قطعة من نسيج؟!..

وتجمّع الحراس يتأملونها بشيء من الإعجاب والحسد!

- أين زوجي؟!

جيء بزوجها مكبلاً بحبل غليظ!..

فبكـت وبكـت حتـى جـف حلقهـا وحتـى كـادت تسـقط علـى الأرض، ساقوها وزوجها إلى المحقق.

- هذه القطعة شغلك أنت؟! أنت متأكدة من ذلك؟!..
- كل التأكيد!..
- والدليل؟!
- حاضر

قالت ذلك، ثم مدت يدها إلى صدرها فأخرجت منه مكعباً من المرمر الشفاف.

- هذا خاتمي

تناول المحقق الخاتم من يدها وراح يتأمله، خاتم رشيق أنيق.

بلله بقليل من الحبر ثم طبعه على بعض أوراقه البيضاء... هو هو الخاتم المطبوع في الزاوية العليا من اللوحة.

ذهل المحقق والحرس لهذه المفاجأة وطفرت دموع الفرح من عيني الراعي ولم تعد هناك حاجة استدعاء عمدة قرية الطواحين.

وانتحى أحد التجار بالراعي جانباً فسلمه الراعي قطعة النسيج وراح يدس في جيبه المبلغ الذي دفعه التاجر عشرين فضة!..

- بيني وبينك، قطعة غيرها بعشرين وأكثر... وهذا دكاني!..

وعندما ابتعد الراعي أسرع التاجر إلى تعليق لوحة "العروس" في صدر دكانه ثم غمس ريشته بالحبر الأسود ورسم

على بطاقة بيضاء بحجم الكف "150" ثم شكها بدبوس في أعلى اللوحة!..

سار العروسان على مهل وهما يقضمان بعض الفطائر الصباحية ويرميان فُتاتاً منها إلى كلبهما الذي كان يسبقهما أحياناً وهو يبصبص بذنبه أو يتبعهما لاهثاً يلتقط كسيرات الفطير..

كانت فرحة الراعي لا توصف عندما لاحظ أن زوجته حامل.

سيكون أباً وما أسعدها ساعة!..

انطلقت ألحان شبابته طروبة راقصة لا عهد للوادي بمثل أصدائها الصّداحة، وسرت في عروقه نشوة من السعادة والرجاء لا عهد لقلبه الخفاق بمثل حرارتها وحلاوتها.

ولذّ للنساجة طعم انتصارها الأول في لوحتها "العروسة" فازدادت همة ونشاطاً للعمل.

ولكن ما هو التصميم الجديد الذي يستحق أن تطلب من أجله عشرين فضة أو أكثر؟!

ماذا لا تطرز، هذه المرة، لوحة عنوانها "الراعي".

في زاوية الرسم اليمنى يعزف الراعي على شبابته فوق صخرة مرتفعة تتسلق جنباتها لبلابة بنفسجية الزهور.

تحت أقدام الصخرة يربض كلب الراعي بعينين نصف مغمضتين واذنين منتصبتين.

في أسفل الصورة وفي الأفق البعيد بضع بقرات في المرعى، واحدة رابضة وثانية تقضم العشب الأخضر وثالثة ترضع عجلها الأرقط الوليد..

بين الصخرة والمرعى بعض السحب البيضاء المتناثرة، وهكذا يبدو الراعي وكأنه يطاول السماء!..

كانت تجلس في ظل صنوبرة ضخمة تنسج بحركات رشيقة ساحرة ثم تتوقف قليلاً تمسح على جنينها أو ترسل نظرة حانية نحو زوجها الراعي وهو يجوب المرج بنشاط وحماسة أو يعزف على شبابته ألحاناً تطرب حتى الجنين في أحشاء الأم الباسمة المفعمة بالسعادة والرضى!..

كانت العمة العجوز تزورها بين الحين والحين تحمل إليها بعض الثمار أو الخضر وتقدم إليها بعض النصائح وتدربها على وسائل العناية بوليدها، وعندما تعود كانت تحمل معها إلى بيت العمدة شيئاً من اللبن والزبدة والفطر وبعض الأعشاب الطبية الجبلية...

أما العمدة فقد بدأ يتخلى شيئاً فشيئاً عن عنجهية السيادة وتقليد الطبقات العليا، بدأ يقارن بين سعادة الراعي الأجير الفقير، وبين متاعب السيد اللاهث وراء الثروة والجاه، وأخذت ذكريات الماضي المرير الذي عاشه تمسح عن عينيه شيئاً فشيئاً غشاوة الشرف الزائف!

وشعرت السيدة باقترابها من هوة مزدوجة: إفلاس المال وإفلاس الجمال فراحت تدرّب نفسها رويداً رويداً على حياة بسيطة وسلوك أكثر مرونة.

وهكذا بدأ بيت العمدة مثل مقصورة جبلية تحوّل عنها روادها إلى مقاصير أنضر شباباً وأندى ظلالاً.

وبدا العمدة قطاً هرماً كلت مخالبه والسيدة طاووساً بدأ يفقد ريشه.

استأذنت العمة من السيدة لأن تبقى بضعة أيام في بيت زوجة الراعي تساعدها على الولادة..

زوّدتها السيدة ببعض لوازم الطفل، وببعض الهدايا من الحبوب والثمار وديك وسلة صغيرة من البيض، وعندما ابتعدت العجوز شيّعتها السيدة بنظرة تشجيع ثم توجهت إلى المطبخ تصنع بنفسها ولأول مرة في حياتها شيئاً من الطعام...

كان الراعي يلتف بفروته الثقيلة والنعاس يداعب أجفانه عندما بدأت في داخل الكوخ حركة غير عادية.

في الداخل ارتفع أنين متقطع مكتوم وأشعل السراج.

يبدو أن ساعة المخاض قد بدأت...

هو يعرف كم تعاني البقرة قبل الولادة ويعرف كيف يساعدها، ولكن العمة أكثر خبرة في توليد النساء فلماذا يظل هو يذرع فناء الكوخ قلقاً يفرك يداً بيد ويصيخ بخوف إلى كل تنهدة أو زفرة!؟..

هــل يبتعــد؟!... لا يجــوز لــه أن يبتعــد فقــد تحتــاج العمة مساعدته

هل يدخل؟!... لا يجوز لـه أن يدخل إذا لـم تطلـب العمـة مساعدته

إذن عليه أن يظل قريباً وعليه أن يحتمل بشجاعة صرخات العذاب التي تحاول الزوجة أن تكتمها فلا تتكتم!..

أخذت ترن في أذن النّسَاجة كلمات الإمبراطورة السماوية وهي تردد على مسمعها: "بالعذاب تلدين أبناءك!.." ولكن النّسَاجة، رغم آلام المخاض وشبح الموت المنتصب فوق رأسها ظلت ترى من خلال هذه الآلام بشائر الحياة الجديدة تطرد شبح الموت مثلما يبدد أشباحَ الليل نورُ الفجر الوليد...

سـمعت زعقـة فارتمـت الأم إلـى الخلـف مرهقـة تلهـث، فأسرعت العمة تلف الوليدة بملاءة صغيرة بيضاء ثم عادت إلى الأم تضع في فمها ملعقة بعد ملعقة من الحساء الساخن..

- عروسة!.. مبروك!..

بهت الراعي لحظة..

عروسة!؟ آه.. كم تمنى أن يكون عريساً ثم راح يقنع نفسه رويداً رويدا بأن سلامة الأم هي الأثمن، وعندما دخل الكوخ قبّل زوجته بحنان وراح يلاطفها ويشجعها ولكنه ظل مرتبكاً تتوقف الكلمات أحياناً في حلقه فيلوكها المرة تلو المرة قبل أن تنطلق من بين شفتيه!

في اليوم الثاني حمل الراعي الطفلة الوليدة وضمها إلى صدره في دَفقةٍ من حنان أشبه ما تكون بينبوع جبلي يترقرق سلسبيلاً عذباً بين حناياه.

إذا بكت خيل إليه أنها تغني...

وإذا أغمضت عينيها خيل إليه أن عصفوراً ناعماً يغفو بين يديه.

وعندما أعادها إلى أمها وهو يهمّ بالانطلاق نحو المرعى أحس بأنه ينتزع قطعة من كبده يودعها حضن الأم المستندة إلى حافة السرير وقد بهت لونها قليلاً وتجمدت بعض قطرات العرق على جبينها...

وهكذا راحت الأيام تمر تباعاً، الأم تستعيد نشاطها والطفلة تزداد حلاوة والراعي يمعن في تدليلهما: يرتب البيت، يطبخ، يرقّص الطفلة يضاحكها، وقد ازداد ثقة بقدرته في الانتصار على الشقاء، والتمتع بحياة مطمئنة ميسورة.

العمدة وزوجة العمدة زاراهما مباركين وقدما إليهما الهدايا وكثيراً من العبارات الناعمة.

وفود القرية حملت البيض والحبوب وأحياناً ديكاً أو فرخ بطة.. ولكن صحة العمة راحت تتدهور مع الأيام. كانت تعاني مرضاً مزمناً وإن كانت تتجلد وتكتمه، وعندما عجزت عن المقاومة سقطت في فراشها كما تسقط الشجرة المتآكلة..

كان لا بد للنساجة من زيارتها والعناية بها ولكن زيارتها ظلت خاطفة فهي ما زالت حذرة من العمدة فقد علّمتها الأيام أن تتقي الجمرة المتقدة المتدثّرة بمعطفها الرمادي الناعم.

لم تستطع العمة أن تقاوم طويلاً فاستسلمت للموت ببسمة مطمئنة، وعندما جاءت النّسَاجة تلقي عليها نظرة الوداع كانت مسجاة على فراشها مغمضة العينين مفترة الثغر كأنها طفل يغفو...

أقبل الكاهن ومعاونوه وبدأت مراسم الجنازة فاختلطت تراتيل الصلاة بنحيب بعض النسوة ودخان البخور المتصاعد...

قرب السرير جثم تابوت من الخشب الوردي السميك، كانت العمة حريصة على أن تحرم نفسها كل لذائذ الحياة لتوفر بعض المال لشرائه ولتأمين نفقات مراسم الجنازة وللدفن، فقد كان يعزّ عليها أن تلف بقطعة من ستارة بالية ثم ترمى هكذا في وادي مقبرة الفقراء حيث تغطى بكومة من تراب قد يجرفها السيل ذات يوم في ما يجرف.

مسكينة العمة جاءت بلا ظل وعادت بلا أثر. لم يكن لها أهل، غصن مقطوع من شجرة ولم تخلّف وراءها طفلاً أو طفلة يحمل اسمها.

بكت النّسَاجة العمة وأحست برهبة الموت لأول مرة.

خيل إليها أنها هي الممددة في السرير خرساء هامدة تعبق من حولها رائحة البخور وتتعالى همهمات الأدعية والنحيب.. عندئذ أحست بشيء من الندم بالتصاقها في الأرض هذا الكوكب الخداع الذي يخفي خلف أزهاره الملونة العطرة أشواكاً جارحة.

ولكنها عندما أحست بحركة ناعمة جديدة بين أحشائها وبطفلتها الأليفة الجميلة اللعوب تشدها من طرف ثوبها برفق تلاشت أشباح الرهبة من أمام عينيها وارتسم مكانها وجه طفلة يبتسم بعذوبة تزينه هالة من ضياءِ فجرٍ وليد!..

كان من الممكن أن تنتهي القصة هنا وأن تختتم بالعبارة التقليدية: "وعاش الراعي وزوجته النّسَاجة في ثبات ونبات وأنجبوا البنين والبنات..." ولكن الأسطورة الصينية لا تنتهي هكذا بل تضيف:

كان الوليد الثاني عريساً وكانت فرحة الوالدين به ذروة الفرح.

ونما الطفل ثم حبا ثم مشى وعيون الوالدين ترعاه بكل حنان وزهو، وعطف أخته واهتمامها به يزيدانه بهجة ودلالاً.

وتضيف الأسطورة أن الراعي ذهب ذات يوم إلى القرية يسدد آخر ديونه للعمدة.

وبينما كان الطفلان نائمين في الكوخ والنّسَاجة تعمل في لوحتها التاسعة الجديدة "الفجر الوليد" هبطت من السماء سحابة

فضية ترجَّل منها شبحان يتلألأ وجههما مثلما تتلألأ نجمتان لماعتان في سماء صافية.

ذعرت النّسَاجة فألقت النول من يدها ووثبت هاربة وجرت خلفها الجاموسة تخور مذعورة، ولكن أحد الشبحين قال بصوت ناعم هادئ رقيق:

- لا تهربي يا أختي النّسَاجة نحن ملكان من السماء
- توقفت وهي تلتقط أنفاسها ثم قالت بصوت متقطع:
- أرحب بكم... تفضلوا إلى البيت... نشرب الشاي!..
- شكراً يا أختنا النّسَاجة... جئنا بأمر من جلالة الامبراطور السماوي وجلالتها نطلب منك العودة إلى مكانك في المملكة السماوية.
- ولكن جلالة الامبراطور السماوي وجلالتها يعرفان بالتأكيد أنني تزوجت هنا وأن لي ولدين وأنني...
- وأنك تفضلين أن تظلي ملتصقة بالأرض، نعم هما يعرفان ذلك ولكن الأمر الذي أصدراه إلينا هو أن نعود بك إلى السماء، بلا مناقشة.

- مع زوجي وولدي!
- نعود بك وحدك.الأمر صريح واضح – نعود بك وحدك!..
- وزوجي وولدي؟!
- لا تعترف السماء بهذا الزواج ولا بهذين الولدين، أبناء السماء للسماء وأبناء الأرض للأرض.
- ولكن هذا ظلم، امبراطور السماء لا يقبل الظلم.
- على نفسك جنيت!
- عندئذ لجأت إلى المراوغة:
- ولكني أحس بأنني فقدت القدرة على التحليق، مثل كل بنات البشر.

يعرف جلالته ذلك، لهذا أوصانا بأن نسقيك من هذا الشراب "الاكسير السماوي" فتعود إليك القدرة على التحليق والعودة إلى السماء... قال ذلك ثم قرّب القارورة من يد النّسَاجة الممتدة نحوه، ولكن النّسَاجة وبحركة خاطفة فتحت القارورة ونثرت ماءها على الأرض.

- لا أعود!

بهت الملاك ولكنه عاد يخاطبها بلهجة حازمة:

- أمرنا جلالته أن نعود بك إلى السماء بلا مناقشة
- قلت لا أعود!

ارتعش الملاك ارتعاشة محمومة وتقلصت عضلات وجهه كمن تلقى صفعة مفاجئة وفي مثل لمح البرق انقض عليها فاختطفها وارتفع بها عالياً عالياً في السماء مثلما ينقض بازي على حمامة وديعة ويرتفع بها عالياً عالياً في السماء...

وتتابع الأسطورة...

وعندما عاد الراعي مع الغروب ركضت الطفلة تتمسح به باكية.

- أين أمك؟!
- لا أدري! كنا نائمين أنا وأخي وعندما أفقت رأيت النول مرمياً تحت الشجرة فظننت أن أمي ذهبت تجمع الحطب أو ذهبت تلاقيك فبكيت وناديتها ولكنها لم تجب.

راح الراعي يهتف باسم زوجته بصوت خفيض ثم بصوت مرتفع ثم بصوت متهدج ممطوط تردده الأودية رهيباً مفزعاً. ولكن بلا جواب...

انتقل إلى تلة ثانية فثالثة وراح يهتف ولكن نداءه ظل أصداء تتردد.

عندئذ راح يركض نحو القرية. سأل العمدة سأل الأهالي ولكن أحداً لم يرها تدخل القرية أو تخرج منها.

عاد إلى الكوخ وهو يأمل أن يجدها في انتظاره ولكنه لم يجد إلا الطفلين يبكيان حتى بح صوتهما من البكاء.

أطعم الطفلين وحملهما إلى الفراش.

أشعل السراج.

أوقد ناراً أمام الكوخ لعل زوجته تهتدي بها، وأخيراً التف بفروته وتكور أمام النار التي بدأت تخمد وهو يكاد يختنق من القهر والحيرة!

ظل ساهراً قلقاً يلاحق بنظره كل شبح ويخفق قلبه واجفاً لكل حركة، مع الفجر كان يتجه نحو المركز، نحو المخفر:

- زوجتي اختفت!
- من أنت؟!
- أنا راعي البقر أجير عند عمدة قرية الطواحين.

- زوجتك النّسَاجة.
- نعم!

وبدأ التحقيق، وطال التحقيق

وأخيراً صرخ رئيس المخفر بصوته الأجش:

- تمشي أمامنا...

مشى الراعي أمامهم إلى الكوخ

بدأ التحقيق من جديد في موقع الحادث

استدعى العمدة وأهالي القرية، ولكن الاختفاء ظل غامضاً مريباً

- تعود إلى "بيت خالتك" لاستكمال التحقيق.

أصبح الآن يعرف معنى "بيت خالته" غرفة ضيقة مظلمة رطبة فيها عدد من أمثاله المتهمين بسرقة أو اعتداء أو عجز عن دفع دين، يسرح في جوانبها البق وتبرز في بعض الليالي عقرب تلسع فيصرخ الملسوع ويهب الآخرون مذعورين يفتشون في الظلام الدامس عن غريمهم وقد يفوزون بسحقه وقد يستطيع الاختفاء في الجحور الكثيرة المنبثة في أرض الغرفة وجدرانها وهو يعرف أيضاً كم هو عنيف رئيس المخفر:

كل متّهم يساق إلى مخفره مجرم يجب أن يعترف شاء أو أبى، الفلق جاهز، والخيزرانات جاهزة ومساعده يضرب ولا يعدّ ولا يتعب كأنه يقرع طبلاً أو ينفّض سجادة...

الطفلان حملتهما السيدة إلى بيتها وقد سرها في الأعماق أن تختفي تلك الفتاة التي نافستها على قلب زوجها وعلى مركزها.

الراعي مجرم أو غير مجرم هذا لا يهمها.

إذا كان قد انتقم لشرفه فمن حقها إذن أن ترعى الولدين حتى يعود الأب أو لا يعود.

وانتشرت في المنطقة شائعات اتفقت في المبدأ واختلفت في التفاصيل:

الزوجة تخون زوجها "فضيّعها" الزوج!

ولكن كيف ضيّعها؟!

رواية تقول: إنه خنقها ثم حملها إلى بعض الكهوف حيث طمرها ثم أسرع يخبر المخفر باختفائها وما زال التراب عالقاً بيديه وثيابه!

ورواية تقول: أنه استدرجها حتى حافة النهر حيث غافلها فضربها بالعصا على قفا رأسها فسقطت فاقدة الوعي. عندئذ ربطها بحبل كان معه ثم ربط حجراً إلى عنقها وقذف بها إلى النهر.

وكانت بعض الروايات تشير بإصبع الاتهام نحو العمدة.

قالوا: العمدة زوّج الخادمة إلى الراعي ليسهل عليه الوصول إليها من وراء ظهر زوجته وظهر الراعي والراعي "ضيّع" الزوجة وتستر على معلمه خوفاً من انتقامه.

واستمر التحقيق وطال، وغاص بعض الشبان في أماكن متفرقة من النهر يفتشون ولكن دون جدوى.

فتشت كل الكهوف القريبة والبعيدة ولكن دون جدوى

أحضرت الكلاب البوليسية من المحافظة فظلت تدور تحت الصنوبرة ترفع رؤوسها نحو السماء ثم تقعى تحت الصنوبرة مزمجرة لاهثة.

كان لا بد إذن من إطلاق سراح الراعي فعاد إلى كوخه ترمقه الناس بنظرات ارتياب وعلامات استفهام كبيرة!

حمل الراعي ولديه من بيت العمدة إلى الكوخ.

سقاهما لبن الجاموسة ثم وضعهما في السرير، وجلس تحت الصنوبرة حزيناً حائراً.

كيف اختفت زوجته؟!

راح يستعيد في ذهنه تفاصيل حياتهما، لا يذكر أنه أزعجها أو أساء إليها، ولا يذكر أنها أزعجته أو أساءت إليه، إذن هي لم تترك البيت غاضبة أو ناقمة! هل اشتاقت إلى أهلها؟! لم تطلب منه زيارة أهلها أبداً وهي تعرف أنه لا يمنعها من زيارة أهلها في الضفة الثانية من النهر الكبير إذا شاءت، هل هناك جريمة؟ كل التحريات أكدت أن لا جريمة وإنما اختفاء غامض! هل خطفت؟ ولكن الكلاب البوليسية والتحريات الدقيقة أكدت أيضاً أن لا اختطاف!

إذن؟!

لغز لم يجد له حلاً!..

كان الراعي غارقاً في بحر من التساؤلات حزيناً ذاهلاً عندما سمع خلفه صوتاً أجش يهمهم:

- ما لك؟!..

التفت يميناً ويساراً وإلى الخلف فلم يشاهد إنسان حوله ولم يسمع غير صوت اجترار جاموسته وهي تنظر بعينيها الواسعتين البليدتين!

لا شك في أن أذنه تخدعه، ولكن الصوت الأجش عاد من جديد

- ما لك؟!

قفز الراعي مذعوراً يتلفت ويتمتم:

- ارحمني يا رب! من هذا؟!

فتحت الجاموسة فمها واسعاً وحركت شفتيها فسمع الراعي صوتاً يقول:

- أنا الجاموسة أخاطبك! ما لك؟!..

وقف الراعي مشدوهاً فترة ثم همّ بالهرب ولكن الصوت الأجش هتف به:

- لا تخف! أنا الجاموسة! أنا أعرف سبب اختفاء زوجتك.

اجلس أحدثك!

- أنت؟!... أنت؟!...

- نعم أنا أحدثك... اسمع!...

أخـــذت الجاموســـة تـــروي للراعـــي قصـــة اختفـــاء الفتاة بالتفصيل:

كيف هبطت السحابة الفضية وكيف قفز منها شبحان بثياب بيضـاء وراحـا يتناقشـان مـع الفتـاة وكيـف رفضـت الفتـاة شـرب القارورة وكيف انقض عليها الملاك وطار بها نحو السماء...

- ولكن لماذا لم تخبريني بذلك قبل الآن!؟

- لو أخبرتك بذلك أمام الناس لاتهموني بأنني ساحرة وبأنني المسؤولة عن اختفاء زوجتك ولأحرقوني حية في ساحة المركز...

اسمع أظن أن باستطاعتي أن أساعدك على الوصول إلى زوجتك إذا شئت!

- أنت؟! وكيف؟!

- في المكان الذي نثرت فيه زوجتك محتوى القارورة السماوية انتشرت رائحة ذكية لم أشم مثلها في حياتي، رائحة أثارت شهيتي فرحت أقضم ذلك العشب المعطّر فوجدته لذيذاً لذيذاً وأحسست بنشاط لا عهد لي به وبخفة في حركاتي لا عهد لي بها، خيل إلي أنني أحمل جناحين غير منظورين.

وفي المساء جربت أن أقفز فارتفعت مسافة في الهواء ثم عدت سالمة إلى الأرض وكررت ذلك مرة بعد مرة فتأكدت من أنني قادرة على الارتفاع في الفضاء بفضل ذلك السائل العجيب. انظر!

قالت ذلك ثم وثبت واقفة ثم ارتفعت في الهواء عالياً عالياً ثم نزلت بالقرب من الراعي الذي ظل يعتقد أنه يعيش حلماً غريباً لا يلبث أن يتلاشى.

وتابعت الجاموسة حديثها:

- إذا شئت أن تلحق بزوجتك فاعتمد علي

وهكذا، تقول الأسطورة: وضع الراعي ولديه في خرج على ظهر الجاموسة ثم أمسك بزمامها فارتفعت بهم نحو السماء

وكـأنهم يرحلـون فـوق "بسـاط الـريح" فـي أسـاطير "ألـف ليلة وليلة"!

بعد رحلة طويلة سلسة في أجواء السماء وقف الراعي في بهو الامبراطور السماوي وهو يحمل طفله الصغير بين ذراعيه بينما أمسكت ابنته بطرف ردائه مستغربة خائفة، أما الجاموسة فقد ظلت مربوطة أمام البوابة السماوية وهي ترسل خوارها الممطوط حيناً بعد حين.

دخل الامبراطور السماوي قاعة العرش تتبعه الامبراطورة وعدد من أفراد الحاشية فانحنى الراعي مراراً تحية احترام وتهيب.

- من أنت؟! وماذا تريد؟!
- أنا راعي البقر من قرية الطواحين. سمعت أن زوجتي قد اختطفتها الآلهة فجئت أبحث عنها.
- أنت زوج النّسَاجة؟!
- نعم هي نساجة ماهرة وزوجة وفية مخلصة.

- ولكن كيف تجرؤ على الزواج من ابنة السماء دون إذن من السماء؟!
- قصتي طويلة يا جلالة الامبراطور وأنا متعب من رحلة الأمس فهل تسمح لي جلالتكم بالجلوس فأروي لكم قصتي!
- لا بأس! أحضروا له كرسياً
- أنا راعي بقر، لم أتعود يا جلالة الامبراطور الجلوس على الكراسي!
- ولكن هذا الكرسي مريح!
- سمعت الكاهن يهمس في أذن العمدة: لم يُخلق بعد النجار الذي يستطيع أن يصنع كرسياً مريحاً، يا عمدة!
- طيب! اجلس كما تشاء!

بسط الراعي رداءه تحته ثم أجلس بنته بجانبه وأسند طفله الصغير على ذراعه اليسرى ثم بدأ يروي قصته بالتفصيل مؤكداً أنه لم يعرف أن الفتاة هي من بنات السماء

- والآن ماذا تريد؟! سأل الامبراطور السماوي
- إعادة زوجتي إلي.

- السماء لا تعترف بهذا الزواج
- ولكن الكاهن بارك ذلك الزواج باسم السماء!
- ومن كلّفه بذلك؟!
- كل الناس الذين أعرفهم يعتقدون بأن الكاهن هو وكيل السماء على الأرض وبأن مشيئة السماء هي العليا فلا تسقط شعرة من رأس إنسان إلا بإذن من السماء!
- يبدو أن الناس الذين عرفتهم يخلطون بين المثل والحادث بين الرمزية والموضوعية! هذا ليس مهماً، الأفضل أن نبحث موضوعك بالذات! اسمع! إذا اعترفت السماء بزواجك من النّسَاجة فهل تفضل أن تعود بزوجتك إلى الأرض أو تبقى معنا هنا؟!
- يا جلالة الامبراطور كان فرحي عظيماً، لا يوصف، عندما بدأت رحلتي باتجاه السماء، كانت أجمل من الخيال وأغرب.
- رأيت نفسي نبيّاً لا إنساناً عادياً، أحسست بالزهو وربما بالغرور، ولكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً مع الأسف!... كانت الأرض تشدّني إليها كلما ابتعدت عنها، أنا راع أعيش

فـي الجبـال والمـروج بـين الأنهـار والأشـجار، الألـوان تفـرح عينـي والألحـان تطـرب أذنـي والعطـر يمـلأ رئتـي، أنتقل من ظـل صـنوبرة إلـى ظـل سـنديانة، فـي الصـيف أقصـد الجبـل المعمـم بـالثلوج المكسـو بالخضـرة، وفـي الشـتاء أركـن إلـى الوادي الدافئ والموقد الهادئ...

- تريد أن تقول أن أرضكم الترابية السفلية أجمل من السماء العلوية النورانية؟
- أرجو أن لا يفسر كلامي بأنه إهانة للسماء، أنا راع لم أتعود المجاملة، قلبي على لساني.
- أليست خيرات الأرض من خير السماء! هذه الثلوج التي تعم الجبـال وهـذه الميـاه التـي تنسـاب هـدّارة فـي الأوديـة أليسـت كلها من فضل السماء؟
- مياه الأرض تصعد من الأرض وتعود إلى الأرض.
- ولكنهـا تصـعد بمشـيئة السـماء وبمشـيئة السـماء تعـود إلـى الأرض أو لا تعود
- بقانون أو بلا قانون أحب أن أسأل؟!

- هنا تململت الطفلة وهتفت بصوت خفيض:
- عطشانة يا بابا!

رفع الراعي مطرته وهزها فوجدها فارغة إلا من بضع قطرات سكبها على شفتي الطفلة المحترقتين.

- هل تأمر جلالتكم ببعض الماء لهذه الطفلة

ومن أين الماء في عالم شرابه نور الشمس

- ما أضعف أطفالكم يا أبناء الأرض تحييهم وتميتهم قطرة ماء.
- أبناء الأرض يعطشون أما رمال الصحارى فلا تعطش..

هل تسمح لي بأن أحضر لها بعض اللبن من الجاموسة.

قال ذلك ثم انطلق نحو جاموسته التي راحت ترحب به بخوارها الهادئ الممطوط.

عندما عاد الراعي يطفئ عطش طفلته كان الامبراطور السماوي قد استعد للجولة الثانية:

- إذا كنت تفضل حياتكم على الأرض فلماذا جئت إذن إلى السماء؟

- ليسمح لي جلالة الإمبراطور بأن أقول له: إن سماءكم هذه هي غير السماء التي صورها لنا الكاهن سماء جنات وأنهار وخمور وعطور... ثم أنني جئت أطالب بزوجتي
- ومن قال لك أنها تفضل العودة إلى الأرض؟
- أرجو أن يتذكر جلالة الإمبراطور أن زوجتي قد خطفت خطفاً ولم تعد بإرادتها الشخصية إلى السماء!..

هنا أحس الإمبراطور بالحرج فالتفت إلى زوجته كأنه يستنجد بها، عندئذ تدخلت الإمبراطورة في الحوار بعد أن ظلت تستمع بصمت مدهش.

تقدمت ثم تكلمت بثقة هادئة:

- الأرض شيطانة ساحرة ولن تسمح السماء لأبناء السماء بأن يقعوا في شراك سحرها، السماء وطن السلام الدائم والسعادة الخالدة.
- وأي معنى لهذه السعادة الرتيبة وأي طعم، يسأم الناس المنّ والسلوى كل يوم ويملون الساقية التي تدور باستمرار رتيبة متثاقلة.

- من علمك هذا؟!
- الحياة وليلة في السجن
- كل هذا تعلمته في ليلة واحدة؟!
- رب ليلة خير من ألف شهر
- صغير وتتكلم كلاماً كبيراً
- الإنسان لم يعد جرماً صغيراً
- هذا كلام شاعر أعمى
- ولكن الحكمة تدرك بالعقل لا بالعينين
- تتكلم مثل أنبياء العهد القديم!
- لماذا راعي الغنم يكون وراعي البقر لا يكون؟!
- لم تعد الأرض بحاجة إلى أنبياء بقدر حاجتها إلى طوفان!
- هكذا تكلم الشاعر الأعمى ولكنه ظل مرتاباً بالنتائج.

الطوفان يخرب ولا يصلح، درن الأرض لا يغسله إلا عرق الكادحين، الإنسان قادر على التغيير.

لقد استطاع الإنسان في كثير من بقاع العالم أن يتحرر.

فلم يعد الراعي مملوكاً لصاحب القطيع، ولا الفلاحة أجيرة أو جارية في بيت العمدة وأشباه العمدة، ولا الشرطي أداة في يد الأقوياء لاضطهاد الضعفاء، وبطلت حرفة الكهانة في مناطق شاسعة واسعة من العالم.

- ولكنه عالم الأباطيل وكل شيء فيه باطل وعابر
- زهرة عابرة فيحاء ولا صخرة أزلية صمّاء!..
- ماما.. ماما صرخ الطفل وهو يتلفت حوله بخوف ودهشة فربت الأب على كتفه وهو يتمتم:
- حقك على الجاموسة يا بني ربما هي أخطأت الطريق إلى السماء!..

ثم التفت إلى الإمبراطور السماوي وقد أربد وجهه وتهدج صوته:

- زوجتي! أم أطفالي! اسمح لي أن أعود بها إلى الأرض!..

- بنت السماء مخلّدة في السماء قانون كان مع الأزل ويبقى ما بقيت السماء!

مسح الراعي دمعة ترقرقت في عينيه وقد بدأ صدره يغتلي بالغيظ العاجز ثم وقف يحضن ولديه المذعورين، وبدأ يخطو بتثاقل نحو بوابة القصر

- إلى أين! تريد أن تعود إلى عالمك السفلي! مسكين!..
- ماذا تعني!
- يكفي ما احتملناه منك لا نريد فضائح جديدة.
- لم أفهم!
- أحياناً تبدو فيلسوفاً فهلوياً وأحياناً غبياً أو متغابياً.. تعود إلى الأرض لتؤلّب وتحرّض أبناء الأرض على أبناء السماء، تعود لإشعال الفتنة. هذا لن يكون!..
- أنا لا أشعل الفتنة، الفتنة قائمة منذ أن وجد الإنسان أسطورة السماء لم تعد خفية على الملايين من أبناء البشر.

- لـن نسـمح لشـاهد عيـان بـأن يتـبجّح بأنـه رأى بعينيـه ولمس بيديه.

أنت هنا وستبقى...

- أسيراً!..
- أسيراً مع ولديك أو ضيوفاً، كما تشاء.

❖ ❖ ❖

الخـــاتمـــة

وهكذا صدرت الإرادة الإمبراطورية بأن يتحول راعي البقر إلى نجم يسمى نجم "الراعي" جوال خالد على ضفاف المجرة لا يسمح له بلقاء زوجته النّسَاجة إلا ليلة واحدة كل عام في السابع من الشهر السابع في التقويم القمري الصيني حتى لا يحدثا بأفكارهما المستوردة فتنة في عالم السلام الدائم والسعادة الخالدة.

وفي الليلة السابعة من الشهر السابع القمري يتطلع أبناء الأرض بابتسامة راضية إلى جسر تنصبه طيور العقعق فوق نهر المجرة للقاء الحبيبين واجتماع الشمل ولكن الذين يفيقون منهم مع الفجر ليشهدوا لحظة الفراق يمسحون دموع الأسى والإشفاق المترقرقة في مآقيهم وقد يتمتمون:

أسرة تُشرّد وسعادة خالدة!!! غير معقول!..

❖ ❖ ❖